الإنصاف

عناصر الموضوع

مفهوم الإنصاف	٤٢٠
الألفاظ ذات الصلة	٤٢١
أنواع الإنصاف	٤٢٣
آداب الإنصاف في الحوار	٤٣٨
نماذج قرآنية في الإنصاف	٤٥٤
فوائد الإنصاف على الفرد والمجتمع	٤٦٣

مفهوم الإنصاف

أولًا: المعنى اللغوي:

(نصف) النون والصاد والفاء أصلان صحيحان، أحدهما: يدل على شطر الشيء، والآخر على جنس من الخدمة والاستعمال، فالأول نصف الشيء ونصيفه: شطره...، والإنصاف في المعاملة كأنه الرضا بالنصف، والنصف الإنصاف أيضًا[1].

وأنصف الرجل أي: عدل[2]. يقال: أنصف ينصف إنصافًا فهو منصف.

وأنصفت الرجل إنصافًا إذا أعطيته الحق، وتناصف القوم إذا تعاطوا الحق بينهم.

والخلاصة: أن (أنصف) من الجذر (ن ص ف) الذي يدل على النصف والعدل والقسط والاستواء، يقال: أنصفت الرجل إنصافًا: عاملته بالعدل والقسط[3].

وأنصف المظلوم من الظالم: استوفى له حقه منه[4]. ويقال: أنصف فلانًا من فلان استوفى له حقه منه، و(ناصفه) الشيء قاسمه نصفه[5].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الإنصاف بكسر الهمزة: العدل.

عرفه ابن الأعرابي بأنه: أن تعطيه من الحق كالذي تستحقه لنفسك[6].

وعرفه المناوي بقوله: الإنصاف في المعاملة العدل، بأن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا مثل ما يعطيه، ولا ينيله من المضار إلا كما ينيله، وقيل: هو استيفاء الحقوق لأربابها، واستخراجها بالأيدي العادلة، والسياسات الفاضلة، وهو والعدل توأمان، نتيجتهما علو الهمة، وبراءة الذمة، باكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل[7].

ولم يرد مصطلح (الإنصاف) في القرآن الكريم، ولكن القرآن تحدث عنه بعبارات بمختلفة، كما سيأتي معنا في ثنايا هذا البحث.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣١.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٣٣٢.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٠٨.
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٣/ ٢٢٢٢.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٢٦.
(٦) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٤/ ٤١٣.
(٧) التوقيف ص ٦٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ العدل:

العدل لغة:

العدل مصدر عدل يعدل عدلًا، وهو مأخوذ من مادة (ع د ل) التي تدل على معنيين متقابلين:أحدهما يدل على الاستواء، والآخر على الاعوجاج[١]، ويرجع لفظ العدل هنا إلى المعنى الأول.

العدل اصطلاحًا:

أصله ضد الجور[٢]. قال في دستور العلماء: العدل: ضد الظلم، وإحقاق الحق، وإخراج الحق عن الباطل، أي: ممتازًا عنه، والأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط[٣]. وعرفه الجرجاني بقوله: العدل: عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط...، وقيل: العدل، مصدر بمعنى: العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق[٤].

الصلة بين العدل والإنصاف:

الإنصاف إعطاء النصف، والعدل يكون في ذلك وفي غيره، ألا ترى أن السارق إذا قطع قيل: إنه عدل عليه، ولا يقال: إنه أنصفه[٥].

والمقصود: أن الإنصاف بمعنى العدل -وإن كنا لا نعدم فرقًا طفيفًا بينهما- كما سبق، وكما هو مبين في كتب اللغة؛ ولهذا فسوف يكون الكلام في هذا البحث متداخلًا ومشتركًا بينهما، حيث يستدل للإنصاف بمثل ما استدل للعدل من آيات القرآن.

٢ القسط:

القسط لغة:

القسط بالكسر: العدل، يقال أقسط يقسط؛ فهو مقسطٌ:إذا عدل، وقسط يقسط فهو قاسطٌ:إذا جار، والقسط أيضًا:مكيال، وهو نصف صاع[٦].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٤٦، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٥١.
(٢) الكليات ص ٦٣٩.
(٣) دستور العلماء ٢/ ٢٢٠.
(٤) التعريفات ص ١٤٧.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٣٤.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٥٢، لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٣٦٢٦.

القسط اصطلاحًا:

«القسط بالكسر: النصيب بالعدل»[(١)].

الصلة بين القسط والإنصاف:

لفظ (الإنصاف) -كما سبق- يفيد معنى العدل، والقسط، والاستواء، والاستقامة؛ فهو على ارتباط وثيق بهذه المعاني كلها، فيشترك معها في كثيرٍ من الدلالات اللغوية، وإن كنا لا نعدم فرقًا طفيفًا بين كل واحدٍ منها، فالقسط هو:العدل البين الظاهر، ومنه سمي المكيال قسطًا، والميزان قسطًا؛ لأنه يصور لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهرًا، وقد يكون من العدل ما يخفى؛ ولهذا قلنا:إن القسط هو النصيب الذي بينت وجوهه، وتقسط القوم الشيء تقاسموا بالقسط[(٢)].

٣ الجور:

الجور لغة:

(جور) الجيم والواو والراء أصل واحد، وهو الميل عن الطريق[(٣)].

الجور اصطلاحًا:

قال السيوطي: الجور: الخروج عن الوسط بزيادة أو نقصان[(٤)]، وقال بعضهم:الجائر من الناس هو الذي يمنع من التزام ما يأمر به الشرع[(٥)].

الصلة بين الجور والإنصاف:

الجور والإنصاف لفظان متقابلان، يدل أحدهما على ضد ما يدل عليه الآخر، فالإنصاف والنصف والنصفة: العدل، والجور: الظلم والتعدي.

وقيل:نقيض الظلم الإنصاف، ونقيض الجور العدل[(٦)].

(١) التوقيف، المناوي ص٢٧١.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٣٤.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٩٣.
(٤) مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، ص ٢٠٧.
(٥) انظر: الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ٨/ ١١٦.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩٣.

أنواع الإنصاف

الإنصاف قيمة عليا من قيم الإسلام، وخلق من أخلاقه الرئيسة السامية، والإنصاف كمفهوم شامل واجب مطلقًا مع كل أحد، والمسلم مأمورٌ بالإنصاف والعدل، وهو إعطاء كل أحد ما يستحقه دون حيف أو ظلم، ويدخل في الإنصاف خمسة أنواع:

أولًا: إنصاف العبد ربَه:

لما كان حقيقة الإنصاف هو استيفاء الحقوق لأربابها، والاعتراف لهم بها، دون بخس ولا هضم، وكان من أعظم الحقوق على العبد على الإطلاق حق الخالق سبحانه وتعالى، كان أعظم أنواع الإنصاف وأجلها قدرًا أن ينصف العبد ربه، بأن يوفيه حقه -قدر استطاعته- دون بخس أو نقص، وإلا فكيف يستقيم أن يؤمر العبد أن ينصف عبدًا مثله، ويترك إنصاف ربه سبحانه، الخالق المنعم، فهو أولى بالإنصاف، ويكون ذلك بعبادته، والقيام بأمره، والوفاء بحقوقه.

والله تعالى قد أمر بالعدل -وهو الإنصاف- أمرًا عامًا مطلقًا، دون تحديد مع من يكون هذا العدل؟ ولا تحديد بزمن معين، بل هو عدل مع كل أحد، وفي كل وقت، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل: ٩٠].

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: إن الله يأمر في هذا الكتاب الذي أنزله إليك يا محمد بالعدل، وهو الإنصاف، ومن الإنصاف: الإقرار بمن أنعم علينا بنعمته، والشكر له على إفضاله، وتولي الحمد أهله، وإذا كان ذلك هو العدل ولم يكن للأوثان والأصنام عندنا يد تستحق الحمد عليها؛ كان جهلًا بنا حمدها وعبادتها، وهي لا تنعم فتشكر، ولا تنفع فتعبد، فلزمنا أن نشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له؛ ولذلك قال من قال: العدل في هذا الموضع: شهادة أن لا إله إلا الله(١).

وتفسير العدل في هذه الآية بهذا النوع من العدل، وهو العدل مع الله، وهي شهادة التوحيد، قال به كثير من المفسرين، ولا جرم فهو أعظم أنواع العدل والإنصاف، وضده وهو الشرك، أعظم أنواع الظلم، وقد بدأ به السمعاني في الكلام عن المراد بالعدل في هذه الآية، حيث قال: في الآية أقوال:

أحدها: أن العدل هو: شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره، وقيل: إنه التوحيد، وهو في معنى الأول(٢).

وكذا بدأ به ابن الجوزي، ثم قال: قال أبو سليمان: العدل في كلام العرب: الإنصاف، وأعظم الإنصاف: الاعتراف للمنعم

(١) جامع البيان، ١٤/ ٣٣٤.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٩٥.

بنعمته[1].

وقال الشنقيطي بعد أن ذكر الأقوال في هذه الآية: فإذا عرفت هذا، فاعلم أن أقوال المفسرين في الآية الكريمة راجعة في الجملة إلى ما ذكرنا؛ كقول ابن عباس رضي الله عنهما: العدل: لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض؛ لأن عبادة الخالق دون المخلوق هي عين الإنصاف والقسط، وتجنب التفريط والإفراط، ومن أدى فرائض الله على الوجه الأكمل فقد أحسن.

ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل الذي حلف لا يزيد على الواجبات: (أفلح إن صدق)[2].

وكقول علي رضي الله عنه: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل[3].

إلى غير ذلك من أقوال السلف[4].

وقال ابن العربي: العدل بين العبد وربه: إيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر، والامتثال للأوامر[5].

والمقصود: أن هذه الآية من جوامع الكلم القرآنية الرائعة، فيما يجب أن يفعله المؤمن، وينتهي عنه.

فالمتبادر أن العدل في الآية في مقامه، وبخاصة والآية مكية لم يقصد به العدل في القضاء، أو لم يقصد به ذلك وحسب، بل قصد به العدل المطلق الذي يتناول معاني الإنصاف، وعدم الإجحاف، وعدم تجاوز الحق قولًا وفعلًا، في كل موقف ومناسبة، ومع كل أحد، ويدخل فيه إنصاف الرب سبحانه وتعالى[6].

فمن أعظم الإنصاف المطالب به العبد إنصافه صاحب الفضل الأكبر عليه، وهو خالقه وموجده، والمنعم عليه بسائر النعم.

إذ العدل مطلوب في أمور التكليف كلها، في الأمور العقدية التي هي عمل القلب، وكذلك مطلوب في الأمور العملية التي هي أعمال الجوارح، وفي حركة الحياة كلها[7].

ومن الأوامر الإلهية العامة بالعدل والإنصاف، والتي يدخل فيها هذا النوع من الإنصاف، وهو إنصاف الرب عز وجل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف:٢٩].

والقسط: العدل، ويقع ذلك في حق

---

(١) زاد المسير ٢/ ٥٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، ١/ ١٨، رقم ٤٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ١/ ٤٠، رقم ١١.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٩١. وانظر: الدر المنثور، السيوطي ٥/ ١٦٠.

(٤) أضواء البيان ٢/ ٤٣٧.

(٥) أحكام القرآن، ٣/ ١٥٤.

(٦) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٥/ ١٦٨.

(٧) انظر: تفسير الشعراوي ١٣/ ٨١٥٨.

الله تعالى، وفي حق الخلق، وفي حق النفس، فالعدل في حق الله الوقوف على حد الأمر، من غير تقصير في المأمور به، أو إقدام على المنهي عنه، ثم ألا تدخر عنه شيئًا مما خولك، ثم لا تؤثر عليه شيئًا فيما أحل لك[1]. فلا إنصاف ولا نصفة أجمل وأحق من الاعتراف بمن أنعم علينا بنعمه، والشكر له على إفضاله، وحمده، وهو أهل للحمد.

فلله تبارك وتعالى على العبد حقوقٌ عظيمة، ونعمٌ جسيمة، فهو من أنشأه من العدم، وأوجده حتى صار شيئًا مذكورًا، بعد أن كان عدمًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨].

فمن الإنصاف أن يعترف العبد بالخالق الموجد من العدم، ويقوم بعبادته على الوجه المأمور به شرعًا.

يقول ابن القيم في هذا النوع من الإنصاف، وهو إنصاف الخالق سبحانه وتعالى: فصل: طوبى لمن أنصف ربه، فأقر له بالجهل في علمه، والآفات في عمله، والعيوب في نفسه، والتفريط في حقه، والظلم في معاملته، فإن آخذه بذنوبه رأى عدله، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله، وإن عمل حسنة رآها من منته وصدقته عليه، فإن قبلها فمنة وصدقة ثانية، وإن ردها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به، وإن عمل سيئة رآها من تخليه عنه، وخذلانه له، وإمساك عصمته عنه؛ وذلك من عدله فيه، فيرى في ذلك فقره إلى ربه، وظلمه في نفسه، فإن غفرها له فبمحض إحسانه، وجوده وكرمه[2].

وقال: ولو أنصف العبد ربه، وأنى له بذلك! لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه؛ ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه؛ وليسلك الطريق الموصلة إليه[3].

ثانيًا: إنصاف النبي صلى الله عليه وسلم:

إن أعظم نعم الله على هذه الأمة إظهار محمد صلى الله عليه وسلم لهم، وبعثته، وإرساله إليهم.

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ

(١) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٥٢٩.

(٢) الفوائد ص ٣٣.

(٣) المصدر السابق ص ٥٧.

﴿مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران:١٦٤].

فإن النعمة على الأمة بإرساله أعظم من النعمة عليهم بإيجاد السماء والأرض، والشمس والقمر، والرياح، والليل والنهار، وإنزال المطر، وإخراج النبات، وغير ذلك؛ فإن هذه النعم كلها قد عمت خلقًا من بني آدم كفروا بالله، وبرسله، وبلقائه، فبدلوا نعمة الله كفرًا، وأما النعمة بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم فإن بها تمت مصالح الدنيا والآخرة، وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده، وكان قبوله سبب سعادتهم في دنياهم وآخرتهم(١).

ولهذا كان من أعظم أنواع الإنصاف إنصاف المسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنصافه يكون بالإيمان به، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨].

ونظير هذه الآية آيات كثيرة، جاءت تأمر بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم، ونلحظ منها: أن الله تعالى قرن الإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم مع الإيمان به، وفي هذا دليل على أن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم واجب متعين، بل لا يتم إيمان المرء إلا به، ولا يصح إسلام إلا معه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ١٣﴾ [الفتح:١٣].

ولما كان الإيمان بالله هو الأصل يتفرع عنه الإيمان بالرسول والنبي بدأ به، فقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ ثم أتبعه بالإيمان بالرسول، فقال: ﴿وَرَسُولِهِ﴾ ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى المعجز الدال على نبوته، وهو كونه أميًا ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ وظهر عنه من المعجزات في ذاته ما ظهر من القرآن الجامع لعلوم الأولين والآخرين، مع نشأته في بلد عارٍ من أهل العلم لم يقرأ كتابًا، ولم يخط، ولم يصحب عالمًا، ولا غاب عن مكة غيبة تقتضي تعلمًا(٢).

وفي نهاية الآية يخبر الله تعالى أن النبي الأمي- صلوات الله وسلامه عليه- يؤمن بالله وكلماته، ومع أن هذه بديهية، إلا أن هذه اللفتة لها مكانها، ولها قيمتها، فالدعوة لا بد أن يسبقها إيمان الداعي بحقيقة ما يدعو إليه، ووضوحه في نفسه، ويقينه منه؛ لذلك يجيء وصف النبي المرسل إلى الناس جميعًا بأنه: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وهو نفس ما يدعو الناس إليه ونصه، ثم يتضمن أخيرًا لفتة إلى مقتضى

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٢٢٢.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٩٧.

هذا الإيمان الذي يدعوهم إليه، وهو اتباعه فيما يأمر به ويشرعه، واتباعه كذلك في سنته وعمله، وهو ما يقرره قول الله سبحانه: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فليس هناك رجاء في أن يهتدي الناس بما يدعوهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا باتباعه فيه، ولا يكفي أن يؤمنوا به في قلوبهم ما لم يتبع الإيمان الاتباع العملي، وهو الإسلام[(١)].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم وجوب طاعته.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ۝٢٠﴾ [الأنفال:٢٠].

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾ [آل عمران:١٣٢] .

والآيات في هذا كثيرة.

فجعل الله تعالى في هذه الآيات طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره، واجتناب نهيه.

قال القاضي عياض رحمه الله: وأما وجوب طاعته فإذا وجب الإيمان به، وتصديقه فيما جاء به، وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به[(٢)].

ولما كانت طاعة الرسول هي طاعة الله لأنه إنما يدعوه إليه، وإنما خلقه القرآن، وحد الضمير، فقال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ ولم يقل: عنهما، وهو كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢].

والمراد: ولا تولوا عن الرسول في حال من الأحوال، وفي أمر من الأوامر، من الجهاد وغيره، ومن الغنائم وغيرها، خف أو ثقل، سهل أو صعب[(٣)].

وأصله: (ولا تتولوا) فحذف إحدى التاءين تخفيفًا ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: وأنتم تسمعونه، أو ولا تتولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تخالفوا وأنتم تسمعون، أي: تصدقون؛ لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة[(٤)].

ونلحظ في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩]أنه كرر قوله: ﴿أَطِيعُوا﴾ ولم يقل: أطيعوا الله والرسول، وإنما أعيد فعل ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ مع أن حرف العطف يغني عن إعادته؛ وذلك إظهارًا للاهتمام بتحصيل طاعة الرسول؛ لتكون أعلى مرتبة من طاعة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٨٠.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٦.

(٣) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٢٤٧.

(٤) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٦٣٨.

أولي الأمر؛ ولينبه على وجوب طاعته فيما يأمر به، ولو كان أمره غير مقترن بقرائن تبليغ الوحي؛ لئلا يتوهم السامع أن طاعة الرسول المأمور بها ترجع إلى طاعة الله فيما يبلغه عن الله دون ما يأمر به في غير التشريع، فإن امتثال أمره كله خير، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا أبا سعيد بن المعلى وأبو سعيد يصلي، فلم يجبه، فلما فرغ من صلاته جاءه، فقال له: (ما منعك أن تأتيني؟) فقال: «كنت أصلي» فقال: (ألم يقل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤])[١].

ولذلك كان الصحابة إذا لم يعلموا مراد الرسول من أمره ربما سألوه: أهو أمر تشريع أم هو الرأي والنظر؟ كما قال له الحباب بن المنذر يوم بدر حين نزل جيش المسلمين: أهذا منزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نجتازه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: (بل الرأي والحرب والمكيدة..)[٢] الحديث[٣].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم: امتثال سنته، والاقتداء بهديه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران:٣١].

فجعل المحبة في اتباعه، وجعل جزاء اتباعه محبته لعباده، وهي أعلى الكرامة[٤].

نعم فحب الله ليس دعوى باللسان، ولا هيامًا بالوجدان، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله، والسير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة، وإن الإيمان ليس كلمات تقال، ولا مشاعر تجيش، ولا شعائر تقام، ولكنه طاعة لله والرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول[٥].

ومن حقه صلى الله عليه وسلم عليهم أن يتحاكموا إليه؛ لأنه رسول الله، وهو مأمور بأن يحكم بين الناس بما أراه الله في وحيه، وما هداه إليه في اجتهاده.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

أي: ينقادون لحكمك، يقال: سلم واستسلم وأسلم إذا انقاد.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة:٦].

فالأسوة في الرسول الاقتداء به، والاتباع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم)، ٦/ ٨١، رقم ٤٧٠٣.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٦٢٠.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٩٧.

(٤) لطائف الإشارات، التستري ص ٧٩.

(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٨٧.

لسنته، وترك مخالفته في قول أو فعل.

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم: لزوم محبته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤].

ففي هذه الآية الكريمة حض وتنبيه بالغ على وجوب محبته، وعظم شأنها، واستحقاقه لها؛ إذ قرع سبحانه وتعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله، وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[(١)].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم وجوب مناصحته، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة:٩١].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟﴾ النصح: إخلاص العمل من الغش، ومنه التوبة النصوح، قال نفطويه: نصح الشيء إذا خلص، ونصح له القول أي أخلصه له، وفي صحيح مسلم عن تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الدين النصيحة) ثلاثًا، قلنا: لمن؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله)[(٢)].

قال العلماء: النصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، وتوقيره، ومحبته، ومحبة آل بيته، وتعظيمه، وتعظيم سنته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها، والتفقه فيها، والذب عنها، ونشرها، والدعاء إليها، والتخلق بأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم[(٣)].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٢٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ١/ ٧٤، رقم ٥٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٢٧.

وقال أبو بكر الآجري: النصح له يقتضي نصحين: نصحًا في حياته، ونصحًا بعد مماته، ففي حياته نصح أصحابه له بالنصر والمحاماة عنه، ومعاداة من عاداه، والسمع والطاعة له، وبذل النفوس والأموال دونه[(١)].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم توقيره، وبر آله، وذريته، وأمهات المؤمنين أزواجه.

قال تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩].

وقال عن أهل بيته: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

قال القاضي: ومن توقيره وبره: بر آله وذريته وأمهات المؤمنين أزواجه، كما حض عليه، وسلكه السلف الصالح رضي الله عنهم[(٢)].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم: تنفيذ ما أمر به، واجتناب مخالفة أمره وتبديل سنته، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [:٦٣].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ أي: عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا من كان[(٣)].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: من سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم فصار في شق، والشرع في شق؛ وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق، وتبين له، واتضح له[(٤)].

والمقصود: أن حق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته عظيم، فالواجب إنصافه، وإعطائه حقه، من التعظيم والإجلال، والطاعة والاتباع، والمحبة والنصرة، وقد دل القرآن على كل ذلك في آيات كثيرة.

ثالثًا: إنصاف العبد نفسه من نفسه:

ومن أنواع الإنصاف: إنصاف المرء نفسه من نفسه.

(١) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٢/ ٣٣.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٢.

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥].

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالقسط، وهو العدل الذي من معانيه الإنصاف، ثم قال: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ وهذا من الإنصاف للنفس، والنصح لها.

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾: أي: اشهد الحق، ولو عاد ضررها عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، وإن كان مضرة عليك(١).

و﴿قَوَّامِينَ﴾ صيغة مبالغة، أي: ليتكرر منكم القيام بالقسط، وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم، وهو الإقرار بما عليكم من الحقوق(٢).

وهنا يحاول المنهج الإلهي تجنيد النفس في وجه ذاتها، وفي وجه عواطفها، تجاه ذاتها أولًا، وتجاه الوالدين والأقربين ثانيًا، وهي محاولة شاقة، أشق كثيرًا من نطقها باللسان، ومن إدراك معناها ومدلولها بالعقل، إن مزاولتها عمليًا شيء آخر غير إدراكها عقليًا، ولا يعرف هذا الذي نقوله إلا من يحاول أن يزاول هذه التجربة واقعًا، ولكن المنهج يجند النفس المؤمنة لهذه التجربة الشاقة؛ لأنها لا بد أن توجد في الأرض، ولا بد أن يقيمها ناس من البشر.

ثم هو يجند النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه فقيرًا، تشفق النفس من شهادة الحق ضده، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية الاجتماعية، كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية، وحين يكون المشهود له أو عليه غنيًا، تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته، أو قد يثير غناه، وتبطره النفس ضده، فتحاول أن تشهد ضده! وهي مشاعر فطرية، أو مقتضيات اجتماعية لها ثقلها حين يواجهها الناس في عالم الواقع، والمنهج يجند النفس تجاهها كذلك كما جندها تجاه حب الذات، وحب الوالدين والأقربين(٣).

ومما يدل على هذا النوع من الإنصاف -وهو إنصاف النفس- عموم الأمر بالعدل الذي من معانيه الإنصاف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل:٩٠].

والعلماء يقسمون العدل إلى أربعة أنواع:

١. عدل مع الخالق.
٢. عدل مع الرسول.
٣. عدل مع الخلق.
٤. عدل مع النفس.

والعدل في حق النفس يكون بإدخال

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٦٠٤.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٧٦.

العتق عليها، وسد أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال(١).

قال ابن القيم في هذا النوع من الإنصاف، وهو إنصاف العبد نفسه: ويدخل في هذا إنصافه نفسه من نفسه، فلا يدعي لها ما ليس لها، ولا يخبثها بتدنيسه لها، وتصغيره إياها، وتحقيرها بمعاصي الله، وينميها ويكبرها، ويرفعها بطاعة الله وتوحيده، وحبه وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وإيثار مرضاته ومحابه على مراضي الخلق ومحابهم، ولا يكون بها مع الخلق...، ويكون بالله لا بنفسه في حبه وبغضه وعطائه ومنعه وكلامه وسكوته ومدخله ومخرجه، فينجي نفسه من البين، ولا يرى لها مكانة يعمل عليها...، فالعبد المحض ليس له مكانة يعمل عليها، فإنه مستحق المنافع والأعمال لسيده، ونفسه ملك لسيده، فهو عامل على أن يؤدي إلى سيده ما هو مستحق له عليه، ليس له مكانة أصلًا، بل قد كوتب على حقوق منجمة، كلما أدى نجمًا حل عليه نجم آخر، ولا يزال المكاتب عبدًا ما بقي عليه شيء من نجوم الكتابة.

والمقصود: أن إنصافه من نفسه يوجب عليه معرفة ربه، وحقه عليه، ومعرفة نفسه، وما خلقت له، وأن لا يزاحم بها مالكها وفاطرها، ويدعي لها الملكة والاستحقاق، ويزاحم مراد سيده، ويدفعه بمراده هو، أو يقدمه ويؤثره عليه، أو يقسم إرادته بين مراد سيده ومراده، وهي قسمة ضيزى، مثل قسمة الذين قالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦].

فلينظر العبد لا يكون من أهل هذه القسمة بين نفسه وشركائه، وبين الله لجهله وظلمه، وإلا لبس عليه وهو لا يشعر، فإن الإنسان خلق ظلومًا جهولًا، فكيف يطلب الإنصاف ممن وصفه الظلم والجهل؟ وكيف ينصف الخلق من لم ينصف الخالق؟...

ثم كيف ينصف غيره من لم ينصف نفسه، وظلمها أقبح الظلم، وسعى في ضررها أعظم السعي، ومنعها أعظم لذاتها من حيث ظن أنه يعطيها إياها، فأتعبها كل التعب، وأشقاها كل الشقاء، من حيث ظن أنه يريحها ويسعدها، وجد كل الجد في حرمانها حظها من الله، وهو يظن أنه ينيلها حظوظها، ودساها كل التدسية، وهو يظن أنه يكبرها وينميها، وحقرها كل التحقير وهو يظن أنه يعظمها، فكيف يرجى الإنصاف ممن هذا إنصافه لنفسه؟ إذا كان هذا فعل العبد بنفسه فماذا تراه بالأجانب يفعل.

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٥٢٩.

والمقصود: أن قول عمار رضي الله عنه: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار»[1] كلام جامع لأصول الخير وفروعه[2].

رابعًا: إنصاف العباد:

ومن أنواع الإنصاف: إنصاف الخلق، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: . ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ① الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ② وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ③﴾ [المطففين:١-٣].

ففي هذه الآية تهديد شديد لمن لا ينصفون الناس في الكيل، ويقاس على الكيل غيره، قال الرازي: واعلم أنه سبحانه جمع في هذه الآية أنواعًا من التهديد:

فقال أولًا: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وهذه الكلمة تذكر عند نزول البلاء.

ثم قال ثانيًا: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ﴾ [المطففين:٤]وهو استفهام بمعنى الإنكار.

ثم قال ثالثًا: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [المطففين:٥] والشيء الذي يستعظمه الله لا شك أنه في غاية العظمة.

ثم قال رابعًا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين:٦]وفيه نوعان من التهديد:

أحدهما: كونهم قائمين مع غاية الخشوع، ونهاية الذلة والانكسار.

والثاني: أنه وصف نفسه بكونه ربًا للعالمين، ثم ها هنا سؤال، وهو كأنه قال قائل: كيف يليق بك مع غاية عظمتك أي تهيئ هذا المحفل العظيم الذي هو محفل القيامة لأجل الشيء الحقير الطفيف؟ فكأنه سبحانه يجيب، فيقول: عظمة الإلهية لا تتم إلا بالعظمة في القدرة، والعظمة في الحكمة، فعظمة القدرة ظهرت بكوني ربًا للعالمين، لكن عظمة الحكمة لا تظهر إلا بأن أنتصف للمظلوم من الظالم؛ بسبب ذلك القدر الحقير الطفيف، فإن الشيء كلما كان أحقر وأصغر كان العلم الواصل إليه أعظم وأتم، فلأجل إظهار العظمة في الحكمة أحضرت خلق الأولين والآخرين في محفل القيامة، وحاسبت المطفف لأجل ذلك القدر الطفيف[3].

ولفظ المطفف يتناول: الذي ينقص الكيل والوزن، وأراد بهذا الذين يعاملون الناس، فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا، ويتجلى ذلك في الوزن والكيل، وفي إظهار العيب، وفي القضاء والأداء والاقتضاء، فمن لم يرض لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام، ١/ ١٥.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٣٧٢-٣٧٤.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣١/ ٨٥.

فليس بمنصف، وأما الصديقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين، فإنهم ينظرون لكل من لهم معهم معاملة، والصدق عزيز، وكذلك أحوالهم في الصحبة والمعاشرة؛ فالذى يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه فهو من هذه الجملة -جملة المطففين-...، ومن اقتضى حق نفسه دون أن يقضي حقوق غيره مثلما يقتضيها لنفسه فهو من جملة المطففين، والفتى من يقضي حقوق الناس ولا يقتضي من أحد لنفسه حقًا[1].

وهذه من حكمة وضع الميزان في الأرض، أن يقوم الناس بالقسط، وينصف بعضهم بعضًا.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن:٧-٩].

قال الرازي: وذكر في منافع الميزان أن يقوم الناس بالقسط، والقسط والإقساط هو الإنصاف، وهو أن تعطي قسط غيرك كما تأخذ قسط نفسك[2].

وسمي العدل ميزانًا لأن الميزان آلة الإنصاف، والتسوية بين الخلق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر الله تعالى بالوفاء، ونهى عن البخس[3].

وفي قوله: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ قال مجاهد: أراد بالميزان العدل والإنصاف، والمعنى: أنه أمر بالعدل، يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: لا تجاوزوا العدل، وقال الحسن وقتادة والضحاك: أراد به الذي يوزن به ليوصل به إلى الإنصاف والانتصاف، وأصل الوزن التقدير، وقوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ يعني: لئلا تميلوا وتظلموا وتجاوزوا الحق في الميزان، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، وقال أبو الدرداء وعطاء: معناه أقيموا لسان الميزان بالعدل، قال سفيان بن عيينة: الإقامة باليد، والقسط بالقلب ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾ ولا تنقصوا الميزان، ولا تطففوا في الكيل والوزن[4].

والمقصود: أن من أنواع الإنصاف إنصاف الخلق بعضهم بعضًا، إذا تعاطوا الحقوق بينهم، فلا يبخس بعضهم بعضًا، ولا يأخذ ما ليس له، ولا يحيف ولا يجور، بل ينبغي أن تؤدى الحقوق كاملة كما أمر الله تعالى.

خامسًا: إنصاف المخالفين:

ومن أنواع الإنصاف التي حث عليها القرآن إنصاف المخالفين، وانظر كيف أنصف القرآن أهل الكتاب مع مخالفتهم

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٦٩٩.
(٢) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٤٧١.
(٣) الوسيط، الواحدي ٤/ ٤٨.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٣١.

الشديدة لدين الله.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران:٧٥].

فهذا من إنصاف وعدل القرآن، ودقته في الحكم بالفساد على الأمم؛ إذ يحكم على الأكثر بالفساد، ثم يستثني الصالحين منهم بعد إطلاق الحكم العام، فمن إنصافه هنا أنه أخبر عن أهل الكتاب أن منهم من يؤدي الأمانة وإن كثرت، ومنهم من لا يؤديها وإن قَلَّتْ.

فالآية فيها دلالة على إنصاف الرب تبارك وتعالى، وأن الله جل وعلا حكم عدل، فاليهود قوم بهت نعتوا ربهم بأقبح المعايب تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

ومع ذلك يقرر الله في هذه الآية أن اليهود على ما فيهم من معايب منهم من لو أمنته فوضعت عنده قنطارًا -والقنطار: الآلاف من الدنانير- ثم طلبتها منه لردها إليك، رغم أنه يهودي، وإخبار الله بهذا دلالة على إنصاف الرب جل وعلا، وأن الله لا يظلم الناس مثقال ذرة.

فقول الله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ أي: إن وضعت عنده قنطارًا أمانة رده إليك تامًا، كما هو رغم أنه كتابي، يهودي وإما نصراني، فكفره لم يمنعه من تأدية الأمانة.

إنها خطة الإنصاف والحق، وعدم البخس والغبن، يجري عليها القرآن الكريم في وصف حال أهل الكتاب الذين كانوا يواجهون الجماعة المسلمة حينذاك، والتي لعلها حال أهل الكتاب في جميع الأجيال؛ ذلك أن خصومة أهل الكتاب للإسلام والمسلمين، ودسهم وكيدهم وتدبيرهم الماكر اللئيم، وإرادتهم الشر بالجماعة المسلمة، وبهذا الدين.

كل ذلك لا يجعل القرآن يبخس المحسنين منهم حقهم، حتى في معرض الجدل والمواجهة، فهو هنا يقرر أن من أهل الكتاب ناسًا أمناء، لا يأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ ولكن منهم كذلك الخونة الطامعين المماطلين، الذين لا يردون حقًا -وإن صغر- إلا بالمطالبة والإلحاح والملازمة.

ثم هم يفلسفون هذا الخلق الذميم، بالكذب على الله عن علم وقصد ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وهذه بالذات صفة يهود، فهم الذين يقولون هذا القول، ويجعلون للأخلاق

مقاييس متعددة، فالأمانة بين اليهودي واليهودي، أما غير اليهود ويسمونهم الأميين، وكانوا يعنون بهم العرب (وهم في الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود) فلا حرج على اليهودي في أكل أموالهم، وغشهم وخداعهم، والتدليس عليهم، واستغلالهم بلا تحرج من وسيلة خسيسة، ولا فعل ذميم!

ومن العجب أن يزعموا أن إلههم ودينهم يأمرهم بهذا، وهم يعلمون أن هذا كذب، وأن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا أموال جماعة من الناس سحتًا وبهتانًا، وألا يرعوا معهم عهدًا ولا ذمة، وأن ينالوا منهم بلا تحرج ولا تذمم، ولكنها يهود! يهود التي اتخذت من عداوة البشرية والحقد عليها ديدنًا ودينًا[1].

والحاصل: أن في هذا التعبير القرآني إنصافًا للنصارى فصفة الخير لهم لا ينكرها الله، بل يشيعها في قرآنه الذي يتلى إلى يوم الدين؛ وذلك ليصدق أيضًا أهل الكتاب أي أمر سيء تنزل فيه آيات من القرآن؛ لأن القرآن منصف مطلق الإنصاف، فما دام قد قال خصلة الخير فيهم فلا بد أن يكون صادقًا عندما يقول الأمور السيئة التي اتصفوا بها.

وهكذا عادة القرآن فهو لا يعمم حكمه إلا حيث يكون التعميم هو الحق الذي لا شك فيه، وإن كان في قوم من هم جديرون بالثناء ذكرهم، وكذلك كان الشأن في ذكر أهل الكتاب، وهم من أعظم الناس مخالفة لشرع الله، ففي هذه الآية يذكر بالخير طائفة من هؤلاء، فيقول الحكم العدل تعالت كلماته.

ومن نماذج إنصاف المخالف في القرآن أيضًا، قوله تعالى حكاية عن فرعون: . ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء:١٨-٢٠].

فقول موسى عليه السلام: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من أروع وأعظم نماذج الإنصاف في القرآن، حيث علق على الثانية، ولم يعلق ويرد على الأولى؛ لأن الأولى حق، فقد تربى وتغذى في بيت فرعون حقًا.

وفي هذه الآية إرشاد للعباد: أن الحق يقبل، ولو صدر من الخصم.

ومن إنصافه أنه قال: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: قال موسى في جوابه على فرعون: أنا لا أنكر أني قد فعلت هذه الفعلة التي تذكرني بها، ولكني فعلتها وأنا في ذلك الوقت من الضالين، أي: فعلت ذلك قبل أن يشرفني الله بوحيه، ويكلفني بحمل رسالته، وفضلًا عن ذلك فأنا كنت أجهل أن هذه الوكزة ستؤدي إلى قتل ذلك الرجل من

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤١٧.

شيعتك، لأني ما قصدت قتله، وإنما قصدت تأديبه، ومنعه من الظلم لغيره[1].

ثم إنه لم ينكر تربيته في بيت فرعون، بل بين له أنه وإن أسدى النعمة إليه فقد أساء إلى شعبه عامة، فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء:٢٢].

أي: وما أحسنت إلي وربيتني إلا وقد أسأت إلى بني إسرائيل جملة، فجعلتهم عبيدًا وخدمًا، تصرفهم في أعمالك، وأعمال رعيتك الشاقة[2].

ومن نماذج إنصاف المخالف في القرآن كذلك قوله تعالى حكاية عن المشركين: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف:٢٨].

فنلحظ هنا أن الله تعالى رد مقولتهم الثانية ونفاها، وسكت عن الأولى؛ لأنهم فعلًا وجدوا آباءهم يفعلون هذه الفاحشة، وهي كما ما ذكر أهل التفسير طوافهم بالبيت عراة[3].

قال ابن عاشور: فأعرض عن رد قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ لأنه إن كان يراد رده من جهة التكذيب فهم غير كاذبين في قولهم؛ لأن آباءهم كانوا يأتون تلك الفواحش، وإن كان يراد رده من جهة عدم صلاحيته للحجة فإن ذلك ظاهر؛ لأن الإنكار والنهي ظاهر انتقالهما إلى آبائهم؛ إذ ما جاز على المثل يجوز على المماثل[4].

وقد يكون السكوت هنا أتى من باب الذم لهذا الاحتجاج بالآباء وتحقيره، قال الرازي: أما الحجة الأولى: فما ذكر الله عنها جوابًا؛ لأنها إشارة إلى محض التقليد، وقد تقرر في عقل كل أحد أنه طريقة فاسدة؛ لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة، فلو كان التقليد طريقًا حقًا للزم الحكم بكون كل واحد من المتناقضين حقًا، ومعلوم أنه باطل؛ ولما كان فساد هذا الطريق ظاهرًا جليًا لكل أحد لم يذكر الله تعالى الجواب عنه[5].

والمقصود: أن من الإنصاف أن ينصف المرء من يخالفه، ولا تكون المحالفة مدعاة لظلمه، أو هضم حقوقه، أو التعدي عليه، وستأتي في المطالب التالية أمثلة قرآنية كثيرة على إنصاف المخالفين.

---

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢٣٩.
(٢) تفسير المراغي ١٩/ ٥٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٧ وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٦١.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٨٤.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٥.

آداب الإنصاف في الحوار

من مجالات الإنصاف البارزة في القرآن مجال الحوار، والدعوة، والحكم على الناس، وقد أولى القرآن هذا الجانب أهمية كبيرة، فحث القرآن على الإنصاف في الحوار، والعدل في الحكم على الناس، والحكم على الأفكار.

أولًا: تحري القصد الحسن:

مما ينبغي على المحاور والداعية حتى يكون منصفًا أن يتحرى القصد الحسن من حواره ودعوته، بأن يكون هدفه إظهار الحق، والرغبة في الوصول إليه، وانظر إلى نبي الله شعيب عليه السلام بعد المحاورة الطويلة لقومه، كيف بين مقصوده من حواره، ودعوته لهم، حيث أخبر الله عنه أنه قال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود:٨٨].

فقوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ يعني: هذا هدفي ومقصدي من دعوتي لكم، وهو قصد حسن، وهكذا ينبغي أن يكون قصد كل محاور وداعية ومتكلم، أن يكون قصده الإصلاح لا الإفساد، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

يقول السمرقندي: في قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ أي: ما أريد إلا العدل[1]. والعدل من معاني الإنصاف.

وقد فضح سوء نواياهم الداعية لهم إلى الإعراض عن دعوته عقب إظهار حسن نيته مما دعاهم إليه، بقوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ [هود:٨٨].

مصادفًا محز جودة الخطابة؛ إذ رماهم بأنهم يعملون بضد ما يعاملهم به[2].

ولما بين لهم حقيقة عمله، وكان في بيانه ما يجر الثناء على نفسه، أعقبه بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله، فقال: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [هود:٨٨].

فسمى إرادته الإصلاح توفيقًا، وجعله من الله، لا يحصل في وقت إلا بالله، أي: بإرادته وهديه[3].

والمقصود: أن من متطلبات الإنصاف في الحوار تحري القصد الحسن من المحاورة، أو من الدعوة؛ وهذا من علامة الإخلاص لله، والرغبة في طلب الحق.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

فمن الإنصاف أن يكون الداعي مقصده صالحًا، وغرضه حسنًا، بالحرص على ظهور الحق، وهداية الخلق، فهذا له أثر

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ١٦٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٤٧.
(٣) المصدر السابق ١٢/ ١٤٥.

عظيم في قبول الحق، فمتى علم الناس من الداعية حسن القصد، ونبل الهدف، أثر ذلك فيهم تأثيرًا عجيبًا.

ثانيًا: التثبت والتبين:

من لوازم الإنصاف التثبت والتبين، حتى لا يخرج المسلم عن العدل والإنصاف في قوله وحكمه، أو يتسرع في الحكم على قول أو فعل أو شخص دون تبين وتثبت.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات:٦].

قال الشافعي رحمه الله: فأمر الله من يمضي أمره على أحد من عباده أن يكون مستبينًا قبل أن يمضيه[١]. حتى لا يجانب العدل والإنصاف.

وها هنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه، ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر، فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته، وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما من فسقه من جهة الكذب، فإن أكثر منه وتكرر، بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة أو مرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمهم الله[٢].

وخصص الفاسق بالتبين والتثبت في قوله لأنه مظنة الكذب، وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها، فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذًا بها، فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره؛ وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطًا بين الأخذ والرفض؛ لما يصل إليها من أنباء، ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق، فتصيب قومًا بظلم عن جهالة وتسرع، فتندم على ارتكابها ما يغضب الله، ويجانب الحق والعدل في اندفاع[٣].

ولهذا قال: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ لأن المؤمن إذا وقع في هذا المحظور المنهي عنه، وهو ظلم الناس،

(١) تفسير الإمام الشافعي ٣/ ١٢٧٠.

(٢) التفسير القيم ص ٤٧٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٤١.

أو أذية الناس بسبب تناقل الأخبار يندم على ذلك، وبخاصة وأن قبول خبر الفاسق يؤدي إلى الرغبة في الانتقام من هذا الفاعل أو معاقبته أو أذيته، فإذا بادرت وعاقبته وتعجلت بناءً على هذا الخبر من الفاسق، فربما يتبين لك بعد ذلك أنه كان مظلومًا، فيملؤك الندم على ما فعلت من ترك التثبت، وعدم الحيطة، وقبول خبر الفاسق.

فلا يعجل من بلغه خبر، وبخاصة إن كان عن حميم أو قريب لمجرد قوله ذلك، فكم حدث في التاريخ القديم والحديث نتيجة أنباء الفسقة الكاذبين من قتل بظلم، وسجن بظلم، وأخذ مال بظلم، وحصل الندم، ولكن بعد فوات الأوان، فإن كان الأذى موتًا فلا حيلة في إحيائه مرة أخرى، وإن كان ضربًا وإيذاءً فلا حيلة في زوال ذلك الضرب، وقد أوذي المرء وأهين.

وهذه الآية ستبقى دستورًا للأخبار والمعاملات للرواة وللمحدثين ولأهل العلم وللحكومات وللقضاة وللمتتبعين للأخبار، بحيث يستوثقون من أي خبر جاء، خاصة إذا كان المخبر يأخذ مالًا، ويأخذ راتبًا على هذه الأخبار، فهو عندما لا يجد خبرًا، ولا يسمع نبأ، يذهب ويكذب ويخترع ليحوز المال، فهو كاذب، ولا يفرح لمثل هذا، فانتقام الله منه يكون عظيمًا في الدنيا قبل الآخرة[(١)].

والمراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت: الأناة، وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر...، وقوله: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي: كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا؛ لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة؛ لأنه لم يصدر عن علم، والمعنى: متلبسين بجهالة بحالهم، فتصبحوا على ما فعلتم بهم من إصابتهم بالخطأ نادمين على ذلك، مغتمين له، مهتمين به[(٢)].

والمقصود: إن من الإنصاف التثبت والتبين من خبر الفاسق قبل الحكم على الناس، أو اتهامهم، أو عقابهم، حتى لا يقع المسلم في الظلم والجور، ثم يندم حيث لا ينفع الندم.

ثالثًا: إحسان الظن:

ومن لوازم الإنصاف حسن الظن بالمسلم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

فنهى الله تعالى عن كثير من الظن السوء بالمؤمنين، فإن بعض الظن إثم؛ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة،

(١) تفسير المنتصر الكتاني ٣٥٣/ ٧.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٧١.

وكظن السوء الذي يقترن به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته، المأمور بخلاف ذلك منه[1].

قال ابن كثير: يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثير منه احتياطًا[2].

فالآية تأمر المؤمنين باجتناب كثير من الظن، فلا يتركوا نفوسهم نهبًا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك، وتعلل هذا الأمر ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وما دام النهي منصبًا على أكثر الظن، والقاعدة أن بعض الظن إثم، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيئ أصلًا؛ لأنه لا يدري أي ظنونه تكون إثمًا؟! بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيئ، فيقع في الإثم، ويدعه نقيًا بريئًا من الهواجس والشكوك، أبيض يكن لإخوانه المودة التي لا يخدشها ظن السوء، والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع.

وما أروع الحياة في مجتمع بريء من الظنون! ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء في تربية الضمائر والقلوب، بل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل، وسياجًا حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف، فلا يؤخذون بظنة، ولا يحاكمون بريبة، ولا يصبح الظن أساسًا لمحاكمتهم، بل لا يصح أن يكون أساسًا للتحقيق معهم، ولا للتحقيق حولهم، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا ظننت فلا تحقق)[3].

ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء، مصونة حقوقهم وحرياتهم واعتبارهم، حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه، ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم! فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحرياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهي إليه هذا النص؟! وأين أقصى ما تتعاجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا المدى الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا، وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلًا،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٣٧٧.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٣/ ٢٢٨، رقم ٣٢٢٧.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص ٣٧٢، رقم ٢٥٢٧.

وحققه في واقع الحياة، بعد أن حققه في واقع الضمير[1].

والمقصود: أن المسلم لكي يكون منصفًا مع الخصم أو مع الناس عمومًا لا بد أن يترك الظن السيئ بهم، بل لا بد من حسن الظن بالطرف الآخر واحترامه، وهذا مما يسهل الوصول إلى قلبه، وتملكه وإقناعه.

وسبب تحريم سوء الظن: أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك ألا تعتقد إلا ما علمت وشاهدت بنفسك، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك، فإنما يلقيه إليك الشيطان.

وللأسف الشديد هذا شائع في مجتمعنا، أعني: سهولة تداول الطعن في الأعراض في المجالس، فما أن تقع خطوبة بين طرفين، أو يفتح الكلام على ذلك -ولو لم يتحقق- حتى تجد من يقبل هذا الكلام، وربما حققه وقطع به، وبنى عليه أحكامه، ثم يشيعها في الناس، هذا شائع وموجود! فهذا من الظلم، وهذا مما يخالف هذا التوجيه القرآني.

ومن الناس من يتلقى الخبر من الجرائد، ومن المشاهدة للإعلام، فيظل يروج بكلام كثير جدًا، فينبغي أن يتحرى المؤمن هذا الذي ينقله، أو يبني عليه أحيانًا، ولا بد من تجنب الظنون السيئة ما لم يشاهد بعينه، ولم يسمع بأذنه.

فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشف بعيان لا يقبل التأويل؛ لأننا نحن البشر، بل كل الخلق لا يستطيع أحد منهم أن يطلع على أسرار القلوب، فأسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى، أما البشر فليس لهم إلا الظاهر، فإذا ظهر من شخص شيء، وبان لك عيانًا ببينة، فهنا يحق لك أن تظن ما يليق بهذا الذي ظهر منه، أما إذا لم يظهر منه شيء ولا أمارة صحيحة على ذلك، فليس من حقك أن تظن به، وإلا فقد ظلمته واستحققت عقاب الله تبارك وتعالى.

رابعًا: القول الحسن:

ومن آداب الإنصاف في الحوار والجدال الحرص على القول الحسن.

قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل:١٢٥].

والمعنى: ادع أيها النبي الناس إلى دين الله، وشريعة ربك، وهي الإسلام، بالحكمة، أي: بالقول المحكم، والموعظة الحسنة، أي: بالعبرة والتوجيه والكلمة المؤثرة في القلوب، والتلطف بالإنسان، بإحلاله وتنشيطه؛ ليحذر الناس بأس الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٤٥.

تعالى، ويحققوا لأنفسهم النجاح، وجادلهم بالتي هي أحسن، أي: وحاججهم محاجة تتصف بالحسن، والإقناع والإنصاف، وبالرفق واللين، ولطف الخطاب، والصفح عن المسيء، وقابل الإساءة بالإحسان، واقصد من الجدال الوصول إلى الحق، دون رفع الصوت أو السب، أو التعيير، أو التهكم والاستهزاء(١).

ومما يبين ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت:٤٦].

فقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: ألطف وأرفق، وهو الجميل من القول، والدعاء إلى الله، والبينة على آيات الله وحججه(٢). كمعاملة الخشونة باللين، والغضب بالحلم، والمشاغبة، أي: تحريك الشر وإثارته بالنصح، أي بتحريك الخير وإثارته، والعجلة بالتأني والاحتياط على وجه لا يؤدي إلى الضعف، ولا إلى إعظام الدنيا الدنية(٣).

والجدال: هو الخصام، أي: لا تخاصموهم، ولا تناقشوهم، ولا تحاوروهم إلا بالكلمة الطيبة، فلا تعنيف، ولا شتيمة، ولا صراخ، ولا تقبيح، ولا شتم وذم.

فالله جل جلاله أمرنا عند محاورة أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن نجادلهم، وأن نستدل عليهم بالتي هي أحسن، أي: بالكلمة الحسنة والطيبة، من غير أن يكون هناك خصام ولا شتيمة.

وأن ندعوهم إلى القرآن وإلى الإسلام وإلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالكلمة الطيبة(٤).

ومن الآيات التي تدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الإسراء:٥٣].

أي: وقل لعبادي يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم: الكلام الأحسن للإقناع، مع البعد عن الشتم والسب والأذى(٥).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يقول: إن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضًا، وينزغ بينهم، أي: يفسد بينهم، ويهيج بينهم الشر(٦).

قال ابن كثير: يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٣١٩.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٨٤.
(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ٤٧٧.
(٤) انظر: تفسير المنتصر الكتاني ١٦٧/ ٢.
(٥) تفسير المراغي ١٥/ ٥٩.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٦٩.

لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزع في يده، أي: فربما أصابه بها[(١)].

ونظيره قوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]يعني: حقًا[(٢)] والحق فيه دلالة على الإنصاف.

والحاصل: أن كلمة حسنًا واسعة الدلالة، فهي ترمز لمعانٍ شتى، من أعظمها الإنصاف في القول، فالإنصاف في القول من أعظم المحاسن.

وكلمة الناس في قوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ عامة، أي: للناس كلهم[(٣)].

والمقصود: أن من آداب الإنصاف اتخاذ هذا الأسلوب من الجدال، بالتي هي أحسن، كي يستخفه السمع، ويقبله الطبع، فالجدال والنقاش بالأسلوب الحسن، وبالحكمة والموعظة الحسنة أدعى عند العقلاء إلى توفير القناعة، والوصول إلى الإيمان، وتحقيق الهدف المقصود.

فالآيات السابقة تأمر بالجدال بالتي هي أحسن إذا لزم الجدال، وبالتزام الحكمة، والموعظة الحسنة في الدعوة إلى سبيل الله.

فالخير كل الخير هو في تلك الخطة، فإذا كان من الكفار من يشذ ويعنف، ورأى بعض المسلمين ضرورة للمقابلة، فلتكن في حدود المماثلة، والصبر مع ذلك هو الأفضل، وعلى المسلمين أن يملكوا زمام أنفسهم، فلا يخرجوا عن حد الاعتدال والإنصاف، ولا يحزنوا، ولا يضق صدرهم بما يرونه من مكر الكفار، ومواقفهم وتعنتهم، وعليهم بتقوى الله، والعمل الحسن الذي يرضيه، وإنه لمع المتقين المحسنين[(٤)].

فهؤلاء أهل الكتاب من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين، وحسن خطاب، واصفح عمن أساء في القول، وترفق بهم في الخطاب، وقابل السوء بالحسنى، واقصد من الجدال الوصول إلى الحق، دون رفع الصوت، وسب الخصم أو الأذى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فهذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بلين الجانب، ولطف الخطاب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٤].

فعلى كل داعية امتثال هذا الأمر الإلهي في دعوته[(٥)].

وهكذا دعا النبي صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٨٠.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١١٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٩٧.
(٤) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٥/ ٢٠٥.
(٥) التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ٢٧٠.

أهل الكتاب إلى كلمة سواء، ينصف فيها بعضهم بعضًا، كما حكى القرآن بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وإذا كان قد دعاهم إلى هذا الإنصاف، وإلى ترك التعصب جانبًا، وعدم الخضوع لأسبابه، فإن حال الذين يخاطبهم إحدى حالين: إما أن يخلصوا في طلب الحق، ويجيبوا داعيه، وتلك خير الخصلتين، وإما أن لا يجيبوا داعيه، وتلك هي السوأى، فإن كانت الأولى فتلك هداية الله، وإن كانت الثانية، فإن الله تعالى قد كتب عليهم الشقوة، ولا سبيل لأن يدخل قلوبهم، فإن من طلب منه الإنصاف، فأعرض عنه فلا سبيل إلى هدايته، والجدل معه لا يجدي؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: فإن أعرضوا، ونأوا بجانبهم عن إجابة داعي الإنصاف، والدعوة بالتي هي أحسن، فلا تجادلوهم، ولا تحاجوهم، فإن الجدل مع من لم يجب داعي العدالة لا يزيده إلا لجاجة وعنادًا؛ وإن الحقائق تتبعثر على ألسنة المتجادلين، ويتبدد رونقها، ويذهب بهاؤها، وتفقد النفس عند الجدل الإيمان بالحقائق، والإذعان لها.

بل أمرهم الله تعالى بقوله: ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: يقول النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين لأولئك الذين مردوا على الجدال، وبعثرة الحقائق في حومة الجدل: اشهدوا بأنا مسلمون، مذعنون لطلب الحق، فلا تحاولوا أن تغيرونا عما اعتقدنا، وقد أنصفناكم بالدعوة إلى كلمة الحق والإنصاف، فلم تجيبوا، والآن ننصفكم مرة أخرى بأن نشهدكم بأننا مخلصون في طلب الحق، مذعنون له.

ومن جانبنا فإن أذعنتم مثلنا فنعما هي، وإن لم تذعنوا فلنا ديننا، ولكم دينكم، والله يحكم بيننا، وهو خير الحاكمين، وإن إعلان الإذعان للحق من جانب المؤمنين فيه دعوة للحق بإعلان المثل الواضح البين السامي، وهو يؤثر في الدعوة إلى الحق أكثر من الجدل؛ إذ يكون فيه ذكرى لمن له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، وإن الجدل يثير غبارًا يجعل الوصول إلى الحق عسيرًا وسط عجاجة المتجادلين.

وإن هذه الآية الكريمة صورة سامية من الدعوة إلى الحق؛ ولذا كان يتخذها النبي صلى الله عليه وسلم منهاجه في دعوته، فقد كانت في الصيغة التي اختارها في دعوة

الملوك والحكام الكبراء إلى الإسلام(١).

خامسًا: ترك الجدال المذموم:

ومن آداب الإنصاف ترك الجدال المذموم، والجدل لأجل دفع الحق ورده، بل متى استبان الحق، وظهرت معالمه، فمن الإنصاف قبوله، والتسليم له، وقد أمر الله بالمجادلة بالحسنى، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

قال القاسمي: دل قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ على الحث على الإنصاف في المناظرة، واتباع الحق، والرفق والمداراة، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق، وإزهاق الباطل، وأن لا غرض سواه(٢).

فالمنصف إذا تجلت له الحجة، وبان له الحق لم يتوقف عن قبول الحق، ولم يستمر في العناد والجدال.

وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة كثيرة في الإنصاف حال الجدال والمناظرة مع الخصم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢٤﴾ [سبأ:٢٤].

وهذه ملاطفة، وتنزل في المجادلة، إلى غاية الإنصاف، كقولك: الله يعلم أن أحدنا على حق، وأن الآخر على باطل، ولا تعين بالتصريح أحدهما، ولكن تنبه الخصم على النظر، حتى يعلم من هو على الحق، ومن هو على الباطل، والمقصود من الآية: أن المؤمنين على هدى، وأن الكفار على ضلال مبين(٣).

قال السمين الحلبي بعد أن ذكر وجهين في تفسير هذه الآية: وهذان الوجهان لا ينبغي أن يحملا على ظاهرهما قطعًا؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك أنه على هدى ويقين، وأن الكفار على ضلال، وإنما هذا الكلام جار على ما يتخاطب به العرب، من استعمال الإنصاف في محاوراتهم، على سبيل الفرض والتقدير، ويسميه أهل البيان: الاستدراج، وهو أن يذكر لمخاطبه أمرًا يسلمه، وإن كان بخلاف ما يذكر، حتى يصغي إلى ما يلقيه إليه؛ إذ لو بدأه بما يكره لم يصغ، ونظيره قولهم: أخزى الله الكاذب مني ومنك(٤).

ونظير الآية السابقة قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٢٥﴾ [سبأ:٢٥].

قال البيضاوي: هذا أدخل في الإنصاف، وأبلغ في الإخبات، حيث أسند الإجرام إلى

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٢٦٠.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٤٢٣.
(٣) التسهيل في علوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦٦.
(٤) الدر المصون ٩/ ١٨٣.

أنفسهم، والعمل إلى المخاطبين[(١)]. فسمى فعله جرمًا -كما يزعمون- مع أنه مثاب مشكور، وسمى فعلهم عملًا، مع أنه مزجور عنه محظور[(٢)].

وفي هذا التعبير القرآني محاسنة للمشركين، ورفق بهم، وإطفاء لحمية الجاهلية التي تعمي عليهم السبيل إلى الهدى، وهذا هو الأسلوب الحكيم في مخاطبة الجاهلين، وهو أسلوب الدعوة الإسلامية، والصميم من رسالة رسولها، كما يقول سبحانه وتعالى لنبيه الكريم: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥][(٣)].

ومن الأمثلة على الإنصاف في المناظرة: قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾ [غافر:٢٨]فهذا أيضًا نوع من أنواع التنزل، أو ما يسمى باستدراج الخصم في المناظرة حتى يقر بالحق.

فلما صرح بالإنكار عليهم بقوله: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا﴾ غالطهم بعد ذلك، في أن قسم أمره إلى كذب وصدق، وأدى ذلك في صورة احتمال ونصيحة، وبدأ في التقسيم بقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ﴾ مداراة منه، وسالكًا طريق الإنصاف في القول، وخوفًا إذا أنكر عليهم قتله أنه ممن يعاضده ويناصره، فأوهمهم بهذا التقسيم والبداءة بحالة الكذب حتى يسلم من شرهم، ويكون ذلك أدنى لتسليمهم.

ومعنى: ﴿فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ﴾ أي: لا يتخطاه ضرره ﴿وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ﴾[(٤)]. من العذاب، ولم يقل: كل الذي يعدكم، مع أنه وعد من نبي صادق القول، مداراةً لهم، وسلوكًا لطريق الإنصاف، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له، وليس فيه نفي إصابة الكل، فكأنه قال لهم: لعل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض ما يعدكم، وهو العذاب العاجل، وفي ذلك هلاككم[(٥)].

قال الشهاب الخفاجي: ففيه من الإنصاف والأدب ما لا يخفى، فإنه نبي صادق، فلا بد أن يصيبهم كل ما وعد به لا بعضه؛ لكنه أتى بما هو أذعن لتسليمهم وتصديقهم؛ لما فيه من الملاطفة في النصح، بكلام منصف، غير مشتط مشدد، أراهم إنه لم يعطه حقه، ولم

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٧.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٥٤٨.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١١/ ٨١٠.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٢٥٢.
(٥) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٠٨.

يتعصب له، ويحامي عنه، حتى لا ينفروا عنه؛ ولذا قدم قوله: ﴿كَٰذِبًا﴾[1].

والمقصود: أن هذا من أعظم الإنصاف في المجادلة والمناظرة، حيث فرض لهم أسوأ الفروض، ووقف معهم موقف المنصف أمام القضية، تمشيًا مع أقصى فرض يمكن أن يتخذوه ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: هو يحمل تبعة عمله، ويلقى جزاءه، ويحتمل جريرته، وليس هذا بمسوغ لهم أن يقتلوه على أية حال!

وهناك الاحتمال الآخر، وهو أن يكون صادقًا، فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال، وعدم التعرض لنتائجه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وإصابتهم ببعض الذي يعدهم هو كذلك أقل احتمال في القضية، فهو لا يطلب إليهم أكثر منه، وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام[2].

ونظير ما سبق قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأنعام:١٣٥].

ترديد بينه عليه السلام وبينهم، ومعلوم أن هذا التهديد والوعيد مختص بهم، وأن عاقبة الدار الحسنى هي له عليه السلام، ولكنه أجري مجرى قوله: فشركما لخيركما الفداء[3].

وقد علم ما هو شر، وما هو خير؛ ولكنه أبرز في صورة الترديد؛ إظهارًا لصورة الإنصاف، ورميًا بالكلام على جهة الاشتراك؛ اتكالًا على فهم المعنى[4].

والحاصل: أن على من اضطر إلى المناظرة والمجادلة فليكن منصفًا، عادلًا، قابلًا للحق، ممن جاء به، ولتكن مناظرته ومجادلته بالحسنى، فالجدال والحجاج غير مذموم مطلقًا، بل حسب كيفيته، والقصد منه، وقد قص لنا القرآن محاجة إبراهيم عليه السلام وغيره، حيث قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة:٢٥٨].

قال القرطبي: وتدل الآية على إثبات المناظرة والمجادلة، وإقامة الحجة، وفي القرآن والسنة من هذا كثير لمن تأمله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١].

وقال: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٤/ ٤٦.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٧٩.

(٣) البيت لحسان بن ثابت، في ديوانه ص٩، وصدر البيت: أتهجوه ولست له بكفو.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٦٥٤.

﴿بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨].

أي: من حجة، وقد وصف خصومة إبراهيم عليه السلام قومه ورده عليهم في عبادة الأوثان، كما في سورة الأنبياء وغيرها.

وقال في قصة نوح عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود:٣٢] الآيات... إلى قوله: ﴿وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود:٣٥].

وكذلك مجادلة موسى مع فرعون إلى غير ذلك من الآي، فهو كله تعليم من الله عز وجل السؤال والجواب والمجادلة في الدين؛ لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق، ودحض حجة الباطل.

وفي قول الله عز وجل: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران:٦٦].

دليل على أن الاحتجاج بالعلم مباح شائع لمن تدبر، قال المزني صاحب الشافعي: ومن حق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل، وأن يقبل منها ما تبين، وقالوا: لا تصح المناظرة، ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونوا متقاربين، أو مستويين في مرتبة واحدة، من الدين والعقل والفهم والإنصاف، وإلا فهو مراء ومكابرة[(١)].

وقد أخبر الله تعالى عن نبيه أنه دعى قومه إلى كلمة سواء، يكون فيها الإنصاف والعدل.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤].

أي: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هلموا نجتمع عليها، وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال، والإنصاف في الجدال[(٢)].

وقد كان عليه السلام حريصًا على إيمانهم، فكأنه تعالى قال: يا محمد اترك ذلك المنهج من الكلام، واعدل إلى منهج آخر، يشهد كل عقل سليم، وطبع مستقيم، أنه كلام مبني على الإنصاف، وترك الجدال، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض، ولا ميل فيه لأحد على صاحبه، وهي ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ﴾[(٣)].

وكأنه لما أورد الدلائل عليهم أولًا،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٨٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣٣.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٥١.

ثم باهلهم ثانيًا، عدل في هذا المقام إلى الكلام المبني على رعاية الإنصاف، وترك المجادلة، وطلب الإفحام والإلزام، ومما يدل عليه أنه خاطبهم ها هنا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهذا الاسم من أحسن الأسماء، وأكمل الألقاب، حيث جعلهم أهلًا لكتاب الله.

ونظيره ما يقال لحافظ القرآن: يا حامل كتاب الله، وللمفسر: يا مفسر كلام الله، فإن هذا اللقب يدل على أن قائله أراد المبالغة في تعظيم المخاطب، وفي تطييب قلبه، وذلك إنما يقال عند عدول الإنسان مع خصمه عن طريقة اللجاج والنزاع إلى طريقة طلب الإنصاف.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾...، فالسواء هو العدل والإنصاف؛ وذلك لأن حقيقة الإنصاف إعطاء النصف، فإن الواجب في العقول ترك الظلم على النفس وعلى الغير؛ وذلك لا يحصل إلا بإعطاء النصف، فإذا أنصف وترك ظلمه أعطاه النصف، فقد سوى بين نفسه، وبين غيره، وحصل الاعتدال، وإذا ظلم وأخذ أكثر مما أعطى زال الاعتدال، فلما كان من لوازم العدل والإنصاف التسوية جعل لفظ التسوية عبارة عن العدل، ثم قال الزجاج: ﴿سَوَآءِۭ﴾ نعت للكلمة، يريد: ذات سواء، أي: كلمة عادلة مستقيمة مستوية، فإذا آمنا بها نحن وأنتم كنا على السواء والاستقامة[١].

والحاصل: أن الأمثلة القرآنية السابقة كلها تدل على استخدام الإنصاف أثناء المناظرة والمجادلة، واستخدام الملاطفة في النصح، والإتيان بكلام منصف غير مشدد، ولا متعصب.

قال ابن باديس: لما كان أهل الباطل لا يجدون في تأييد باطلهم إلا الكلمات الباطلة، يموهون بها، والكلمات البذيئة القبيحة يتخذون سلاحًا منها، ولا يسلكون في مجادلتهم إلا الطرق الملتوية المتناقضة، فيتعسفون فيها، ويهربون إليها؛ لما كان هذا شأنهم، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجتنب كلماتهم الباطلة والقبيحة، وطرائقهم المتناقضة والملتوية، وأن يلتزم في جدالهم كلمة الحق، والكلمات الطيبة البريئة، وأن يسلك في مدافعتهم طريق الرفق والرجاحة والوقار والإنصاف، دون فحش ولا طيش ولا فظاظة.

وهذه الطريقة في الجدال هي التي هي أحسن من غيرها، في لفظها ومعناها، ومظهرها وتأثيرها، وإفضائها للمقصود من إفحام المبطل وجلبه، ورد شره عن الناس، وإطلاعهم على نقصه، وسوء قصده...، فالجدال يكون عند وجود ما يقتضيه؛ ولهذا كانت الدعوة بوجهيها محمودة على

(١) المصدر السابق.

كل حال، وكان الجدال مذمومًا في بعض الأحوال.

وذلك فيما إذا استعمل عند عدم الحاجة إليه، فيكون حينئذٍ شاغلًا عن الدعوة، ومؤديًا في الأكثر إلى الفساد والفتنة، فإذا كان جدالًا لمجرد الغلبة والظهور فهو شر كله، وأشد شرًا منه إذا كان لمدافعة الحق بالباطل.

وفي هذه الأقسام الممنوعة جاء مثل قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [الكهف:٥٦].

وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨].

فالمدافعة والمغالبة من فطرة الإنسان، ولهذا كان الإنسان أكثر شيء جدلًا، غير أن التربية الدينية هي التي تضبط خلقه، وتقوم فطرته، فتجعل جداله بالحق عن الحق.

فلنحذر من أن يطغى علينا خلق المدافعة والمغالبة، فنذهب في الجدل شر مذاهبه، وتصير الخصومة لنا خلقًا، ومن صارت الخصومة له خلقًا أصبح يندفع معها في كل شيء، ولأدنى شيء، ولا يبالي بحق ولا باطل، وإنما يريد الغلب بأي وجه كان...، فمن ضبط نفسه، وراقب ربه، لا يجادل إذا جادل إلا عن الحق، وبالتي هي أحسن[(١)].

والحاصل: أن في هذه الأمثلة القرآنية حثًا على الإنصاف في المناظرة، واتباع الحق، والرفق والمداراة، على وجهٍ يظهر منه أن القصد إثبات الحق، وإزهاق الباطل، لا نصرة الرأي، وهزيمة الرأي الآخر.

سادسًا: الإقرار بالحق إذا قاله المخالف:

ومن الإنصاف أن يقر المرء بالحق، وإن صدر من الخصم، فالحق أحق أن يتبع، ومما يبين ذلك: ما جاء في قصة السحرة مع موسى عليه السلام حيث حكى الله قصتهم.

قال تعالى: . ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ (٧١) قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ (٧٢) إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ (٧٣)﴾ [طه:٧١-٧٣].

وما ذكره جل وعلا عنهم في هذا الموضع من ثباتهم على الإيمان، وإنصافهم للحق، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون ووعيده، رغبة فيما عند الله، قد ذكره في غير هذا الموضع، كقوله في الشعراء عنهم في القصة بعينها: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠)﴾ [الشعراء:٥٠]وقوله في الأعراف: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ

(١) تفسير ابن باديس١/ ٣٢٤.

﴿ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف:١٢٥-١٢٦].

فهؤلاء كانوا في الغداة كفارًا سحرة، وأمسوا أخيارًا بررة، لما عرفوا الحق اتبعوه وأنصفوه، ويا له من إنصاف عظيم! تحملوا معه التبعات العظام، هددهم فرعون بالقطع والقتل والصلب، ومع هذا ما خافوا وما استكانوا، بل آثروا الحق وقبلوه، مع أنه جاء عن طريق من كان خصمًا لهم في نظرهم.

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما حكى تهديد فرعون لأولئك حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام، والبصيرة الكاملة لهم في أصول الدين، فقالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات.

وذلك يدل على أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان وإلا فعل بهم ما أوعدهم، فقالوا: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾ جوابًا لما قاله، وبينوا العلة، وهي أن الذي جاءهم بينات وأدلة، والذي يذكره فرعون محض الدنيا، ومنافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها(١).

والمقصود: أن هذه إجابة حاسمة قاطعة، تقطع أمله في رجوعهم، والإيمان إذا دخل القلب، وأشرب حبه كان أثبت من الرواسي، وهو إيمان بحجة وبينة وبرهان ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: لن نتركه لأجلك أيها الطاغي الباغي، وهذا معنى مؤكد، لأن (لن) تفيد النفي المؤكد...، فلا تطمع في رجوعنا عن الحق والإيثار والتفضيل، أي: لن نفضلك على البينات، وهي الدلالات الواضحات التي جاءتنا، وفي هذا إشارة إلى أن ما عنده باطل وأوهام، وكيف نفضل الأوهام على الدليل والبرهان؟!

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ والذي فطرنا هو الله، يعني: لن نؤثرك على الحق الواضح، ولن نؤثرك على الله تعالى جل جلاله، فهو القادر على كل شيء، فلن نؤثر الضعيف الظاهر على الله القادر العادل القهار، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: أنشأنا ولم نكن شيئًا، فتكون الواو للقسم لا للعطف، والمعنى: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والله الذي أنشأنا من عدم، فمن تكون أنت أيها المخلوق الضعيف، ولو كنت فرعون الطاغي المتجبر بصلفك وعتوك؟!

وقد رتبوا على عزمتهم النابعة من قلوب مؤمنة تفويضهم الأمور إلى ربهم، والاستهانة بفرعون وبتهديده، فقالوا: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ لأنه قضاء الحياة الدنيا، وهي فانية، والآخرة هي الباقية.

وقالوا ما يدل على الاستهانة بحكمه القاصر ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾

(١) مفاتيح الغيب، ٢٢/ ٧٧.

والمعنى: إن قضاءك هو في هذه الحياة الدنيا فقط، فهو قضاء تنفيذه وقت قصير، ومن بعده خير طويل، فإنما الحياة الدنيا متاع قليل، والآخرة خير وأبقى، وإن هذا يدل على كمال الإيمان بالله، والاستهانة بفرعون وعذابه[1].

والمقصود: أن هؤلاء لما عرفوا الحق أنصفوه واتبعوه وآثروه، فيا له من إيثار! وما أعظمه من إنصاف!

هددهم وتوعدهم بالقتل والصلب، وفنون من العذاب الصعب، وهكذا هي عادة المنهزم، إذا عجز عن الحجة لجأ إلى القوة.

فكان ردهم له أن قالوا له: لن نختارك يا فرعون، ولن نرضى بأن نكون من حزبك، ولن نقدم سلامتنا من عذابك، على ما ظهر لنا من المعجزات التي جاءنا بها موسى، والتي على رأسها عصاه التي ألقاها فإذا هي تبتلع حبالنا وعصينا.

وفي قول فرعون: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ إشارة إلى ما تهدد به موسى السحرة، قبل أن تبدأ المعركة، وذلك في قوله: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[طه:٦١].

فالعذاب الذي تهددهم به موسى هو عذاب مؤجل ليوم القيامة، وهذا العذاب لا يدرك مداه إلا من يؤمنون بالله وباليوم الآخر.

أما العذاب الذي سيأخذهم به فرعون فهو عذاب حاضر واقع في الحال، وهو عذاب -على تلك الصورة- فظيع مهول! ولهذا وازن فرعون بين عذابه، والعذاب الذي توعد موسى السحرة به، وأراهم أن عذابه أشد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أعذابي الحاضر أم العذاب الذي يهددكم به موسى؟ وأنا أم موسى ﴿أبقى﴾ لكم، وأملك لأمركم، وأقدر على التسلط عليكم؟

فكان جوابهم هذه العبارة: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ وهكذا الإيمان إذا جاء إلى الإنسان، أو جاء إليه الإنسان عن طريق النظر والبحث والتحليل والتعليل، إنه حينئذٍ إيمان يخالط المشاعر، ويملك القلوب، ويأسر العقول، ويجعل من الإنسان الفقير الضعيف، قوة هائلة، تتحدى الجبابرة، وتستخف بأعظم الأهوال، وأشد الخطوب، وهل كان يقع في الحسبان أن جماعة من رعايا فرعون وعابديه الذين ولدوا -كما ولد آباؤهم- في ظل ربوبيته، وسلطان ألوهيته، هل كان يقع في الحسبان أن يجيء يوم يقف فيه هؤلاء (العباد) في وجه هذا (الإله) موقف التحدي، بل والاستخفاف والسخرية؟ ولكنه الإيمان، يفعل المعجزات، ويقلب

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٧٥٣.

الأوضاع والمواضعات![1].

ألقى الله جل وعلا في قلوبهم الإيمان واليقين، ووجدوا حلاوته، رغم أنه ليس لهم أيامًا، ولا شهورًا، ولا أعوامًا في الطاعة والإيمان والعمل الصالح، لكن تلك الحظوة الإلهية نالوها ببركة سجودهم، حتى يعلم أثر العمل الصالح على قلب العبد، ثم ردوا عليه بطريقته...، قد يكون الله أعطاك سلطانًا على الدنيا، لكن ليس لك سلطان على حياتنا في الآخرة والدنيا، وسواء قضيت علينا أو لم تقض علينا فمردنا أصلًا إلى الموت فلا نخوف بشيء، لكن العبرة بالحياة الأخروية.

وهل نفذ فيهم تهديده؟ الآيات لم تذكر ذلك، لكن ذكر المفسرون أنه أنفذ فيهم وعيده، فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم، فماتوا على الإيمان، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة[2].

نماذج قرآنية في الإنصاف

الدعوة إلى الإنصاف، والحث على سلوكه مبدأ قرآني، فقد جاء في القرآن الكريم صور كثيرة، ونماذج عديدة في الإنصاف، ومن النماذج القرآنية البارزة في الإنصاف:

أولًا: إنصاف القرآن لطائفة من قوم موسى عليه السلام:

مع أن اليهود هم أشد الناس عداوة للإسلام وأهله، وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم مبينةً كفرهم، وخبثهم، وعنادهم، وقتلهم الأنبياء، وقولهم على الله ما قالوا، حتى لعنهم الله بما قالوا، إلا أن هذه العداوة، وهذه الصفات التي حملوها، لم تمنع القرآن الكريم من إنصاف بعضٍ منهم.

ومن مظاهر هذا الإنصاف:

١. ثناؤه عز وجل على طائفة من قوم موسى.

قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩].

فكونهم أشد الناس عداوة للمسلمين لم يمنع ذلك من إنصافهم، والإشادة بمن أحسن منهم.

وقوم موسى هم أتباع دينه من قبل بعثة

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٨/ ٨٠٧.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ٢٤١.

محمد صلى الله عليه وسلم، فمن بقي متمسكًا بدين موسى عليه السلام بعد بلوغ دعوة الإسلام إليه فليس من قوم موسى، ولكن يقال: هو من بني إسرائيل أو من اليهود؛ لأن الإضافة في قوم موسى تؤذن بأنهم متبعو دينه الذي من جملة أصوله ترقب مجيء الرسول الأمي صلى الله عليه وسلم[1].

والآية تبين أنهم جماعة؛ لأن لفظ (الأمة) يدل على الكثرة، وهم في الواقع قليل.

قال في اللباب: فإن قيل: إنهم كانوا قليلين في العدد، ولفظ (الأمة) ينبئ عن الكثرة، فالجواب: إنهم لما أخلصوا في الدين جاز إطلاق لفظ (الأمة) عليهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠][2].

فمدحهم الله بقوله: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يهدون الناس من بني إسرائيل، أو من غيرهم، ببث فضائل الدين الإلهي، وهو الذي سماه الله بالحق، و﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يحكمون حكمًا لا جور فيه...، والمعنى: أنهم يحكمون بالعدل على بصيرة وعلم، وليس بمجرد مصادفة الحق عن جهل، فإن القاضي الجاهل إذا قضى بغير علم كان أحد القاضيين اللذين في النار،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٤٢.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٩/ ٣٤٨.

ولو صادف الحق؛ لأنه بجهله قد استخف بحقوق الناس، ولا تنفعه مصادفة الحق؛ لأن تلك المصادفة لا عمل له فيها[3].

والحاصل: أن الله أخبر عن صفة لقوم موسى الذين رغبهم الله تعالى باتباع ملة محمد صلى الله عليه وسلم، وهي أن بعضهم أمة مؤمنة يهدون بالحق، وبه يعدلون، وهذا فيه إنصاف لهم، وشهادة صريحة من الله تعالى، تبين أن من قوم موسى جماعة تهدي بالحق، وتؤمن بالإيمان الحق، وترشد الناس إلى الإيمان الصحيح والخير، وتدل على منهج الاستقامة، وتحكم بمقتضى العدل الإلهي الواجب اتباعه في القضاء، دون جور أو ظلم، هؤلاء الجماعة اهتدوا واتقوا وعدلوا، فأشاد القرآن بهم، وهذا من إنصاف القرآن وعدله.

٢ . ثناؤه على طائفة من أهل الكتاب.

قال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:١١٣-١١٥].

فقوله: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً﴾ هذا أيضًا من

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٤٢.

إنصاف القرآن، فهو لا يعمم حكمه إلا حيث يكون التعميم هو الحق الذي لا شك فيه، وإن كان في قوم من هم جديرون بالثناء ذكرهم...، ففي هذه الآية يذكر بالخير العظيم طائفة من هؤلاء، فيقول الحكم العدل تعالت كلماته: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: ليسوا متساوين في هذه الأعمال، وتلك الأخلاق، أو ليسوا متساوين مطلقًا، فليسوا جميعًا أشرارًا، وإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق طائفة كبيرة من الناس اجتمعت على الشر اجتماعًا مطلقًا، بحيث يرتضيه الجميع ويقصدونه ويريدونه ويبتغونه، عامدين مريدين معتدين، بل إن منهم الضال، ومنهم المضل، ومنهم الناطق بالحق الذي لا يجد داعيًا، أو يحمل على السكوت في وسط نكران الضالين...، وبعد أن ذكر سبحانه أنهم ليسوا سواء، وقد ذكر أحوال أشرارهم أخذ يبين أحوال أخيارهم، فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب الذين ذكرنا أوصاف الكثرة منهم، طائفة قائمة...، وفسر الزمخشري كلمة ﴿قَائِمَةٌ﴾ بمعنى مستقيمة عادلة، من قولك: أقمت العود فقام، بمعنى استقام[1]، وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذا الجزء من الآية الكريمة وصفين اثنين:

الأول: أنهم يتلون آيات الله.

والثاني: أنهم يسجدون.

ومعنى يسجدون، أي: يخضعون ويتطامنون للحق، ولا يجحدون، ويتجهون إلى ربهم، يرجون رضاه، ولا يستكبرون عن نداء الحق إذا دعوا، فكنى بالسجود عن الخضوع المطلق الذي يعد السجود مظهره.

ويصح أن يراد به السجود الذي يقع في صلاة المسلمين.

وقد ذكر ذلك الوصف مصدرًا بـ﴿هم﴾ إذ يقول: وهم يسجدون، فلم يقل: ويسجدون؛ للإشارة إلى أن الخضوع والإذعان للحق شأن من شئونهم، وليس حالًا تعرض لهم؛ إذ إن ذكر الضمير فيه تقوية الإسناد، وتوثيق لدوامه واستمراره[2].

وفي الآية قولان ذكرهما ابن كثير، حيث قال:

عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ قال: لا يستوي أهل الكتاب، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد

(١) الكشاف، ١/ ٤٠٢.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٣٦٦.

وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن، ومنهم المجرم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله، فهي قائمة، يعني: مستقيمة[1].

وقد ذكر ابن جرير أن قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث: أنها نزلت في جماعة من اليهود أسلموا فحسن إسلامهم[2]. ولا يمنع أن تشمل أيضًا النصارى.

فقد قال ابن عاشور: وعدل عن أن يقال: «منهم أمة قائمة» إلى قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ليكون هذا الثناء شاملًا لصالحي اليهود وصالحي النصارى، فلا يختص بصالحي اليهود، فإن صالحي اليهود قبل بعثة عيسى كانوا متمسكين بدينهم، مستقيمين عليه، ومنهم الذين آمنوا بعيسى واتبعوه، وكذلك صالحو النصارى قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا مستقيمين على شريعة عيسى، وكثير منهم أهل تهجد في الأديرة والصوامع، وقد صاروا مسلمين بعد البعثة المحمدية[3].

٣. ذكر أن عند بعضهم أمانة.

قال سبحانه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

قال أبو جعفر الطبري: هذا خبر من الله عز وجل أن من أهل الكتاب، وهم اليهود من بني إسرائيل، أهل أمانة، يؤدونها، ولا يخونونها، ومنهم الخائن أمانته، الفاجر في يمينه[4].

فهذا مطلق الإنصاف الإلهي، فإذا كان الحق قد كشف للرسول بعضًا من مكر أهل الكتاب، فذلك لا يعني أن هناك حملة على أهل الكتاب، وكأنهم كلهم أهل سوء، لا، بل منهم من يتميز بالأمانة، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإله المنصف العدل[5].

والمقصود: أن هذا من إنصاف القرآن، وعدله في الحكم عليهم، فلم يخف بعض صفاتهم الحسنة، بل أشاد بها، وذكرها بكلام يتلى إلى قيام الساعة.

ثانيًا: إنصاف بعض النصارى:

ومن النماذج القرآنية في الإنصاف، إنصافه لبعض النصارى، فقد أثنى عليهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٠.
(٢) جامع البيان، ٧/ ١٢٠.
(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٥٧.
(٤) جامع البيان، ٦/ ٥١٩.
(٥) تفسير الشعراوي ٣/ ١٥٤٢.

بقوله: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [المائدة:٨٢-٨٥].

أي: هم ألين عريكة، وأقرب ودًا، ولم يصفهم بالود إنما جعلهم أقرب من اليهود والمشركين...، واليهود ليسوا على شيء من أخلاق النصارى، بل شأنهم الخبث واللي بالألسنة، وفي خلال إحسانك إلى اليهودي يترقب ما يغتالك به، ألا ترى إلى ما حكى تعالى عنهم ذلك بأنهم قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥].

وفي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ إشارة إلى أنهم ليسوا متمسكين بحقيقة النصرانية، بل ذلك قول منهم وزعم، ووصف العداوة بالأشد، والمودة بالأقرب دليل على تفاوت الجنسين بالنسبة إلى المؤمنين، فتلك العداوة أشد العداوات وأظهرها، وتلك المودة أقرب وأسهل.

فظاهر الآية يدل على أن النصارى أصلح حالًا من اليهود، وأقرب إلى المؤمنين مودة، وعلى هذا الظاهر فسرت هذه الآية[1].

فالظاهر أن النصارى على الجملة أصلح حالًا من اليهود، وقد ذكر المفسرون ما فضل به النصارى على اليهود من كرم الأخلاق، والدخول في الإسلام سريعًا، وليس الكلام واردًا بسبب العقائد، وإلا فكلهم كفار، وإنما ورد بسبب الانفعال للمسلمين...

وصدر الآية يقتضي العموم؛ لأنه قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾.

ثم أخبر أن من هذه الطائفة علماء وزهاد ومتواضعين، وسريعي استجابة للإسلام، وكثيري بكاء عند سماع القرآن، واليهود بخلاف ذلك، والوجود يصدق قرب النصارى من المسلمين وبعد اليهود.

وذكر العلة في ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

والإشارة بذلك إلى أقرب المودة عليه، أي: منهم علماء وعباد، وأنهم قوم فيهم تواضع واستكانة، وليسوا مستكبرين، واليهود على خلاف ذلك، لم يكن فيهم قط

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٩٤، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٧٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٠.

أهل ديارات ولا صوامع وانقطاع عن الدنيا، بل هم معظمون متطاولون لتحصيلها، حتى كأنهم لا يؤمنون بآخرة؛ ولذلك لا يرى فيهم زاهد[1].

والآيات التي جاءت في إنصاف أهل الكتاب -غير ما سبق- كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة:١٢١]قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها نزلت في الذين آمنوا من اليهود، قاله ابن عباس.

والثاني: في المؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قاله عكرمة وقتادة[2].

ومن الآيات: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت:٤٧]قال ابن جرير في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من قبلك من بني إسرائيل ﴿يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ يقول: ومن هؤلاء الذين هم بين ظهرانيك اليوم من يؤمن به كعبد الله بن سلام، ومن آمن برسوله من بني إسرائيل[3].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

قال ابن أبي حاتم: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ قال: يعني: من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب[4].

ثالثًا: إنصاف ذي القرنين:

ومن النماذج القرآنية في الإنصاف إنصاف ذي القرنين، كما حكى الله تعالى عنه بقوله: . ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغۡرِبَ ٱلشَّمۡسِ وَجَدَهَا تَغۡرُبُ فِي عَيۡنٍ حَمِئَةٖ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوۡمٗاۖ قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف:٨٦-٨٨].

يحكي الله عن ذي القرنين أنه لما وصل إلى هؤلاء القوم، ووجدهم كفارًا، خير في أمرهم ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ أي: تهلكهم، وتستأصلهم بكفرهم، بحيث لا يبقى منهم

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٤٣.
(٢) زاد المسير، ١/ ١٠٧.
(٣) جامع البيان، ٢٠/ ٥٠.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٨.

أحد ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ﴾ وتصنع ﴿فِيهِمْ حُسْنًا﴾ شرعًا ودينًا، كما في سائر المؤمنين.

ثم لما خير ذو القرنين في أمرهم، وفوض أمرهم إليه، قال على مقتضى العدل والإنصاف، الذي قد جبله الحق عليه: أدعوهم أولًا إلى الإيمان، وألقي عليهم كلمة التوحيد، ثم بعد ذلك ﴿مَن ظَلَمَ﴾ وتولى وأبى وأصر على ما عليه من الكفر والهوى ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أو نقتله حدًا بعد عرض الإسلام... ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبة العظمى، والدرجة العليا، والمقام الأسنى ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ قولًا سهلًا معتدلًا بين إفراط القتل، والاستئصال، وتفريط الإبقاء على الكفر والضلال مداهنة. وهذا غاية في العدل والإنصاف.

وهكذا أقام ذو القرنين العدل، بتعذيب الظالم، وتكريم المؤمن، صاحب العمل الصالح.

وفي الآية دلالة على أن من قدر على أعدائه وتمكن منهم فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال، بل يعامل المحسن بإحسانه، والمسيء بقدر إساءته، فإن ما حكي عن الإسكندر ها هنا من قوله: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾... إلى آخره، نهاية في العدل، وغاية الإنصاف[(١)].

وبين الله تعالى اتصاف ذي القرنين بصفتي العدل والإنصاف ليحتذى حذوه، ويقتدى به في ذلك.

والمقصود: أن هذا هو قانون العدل والإنصاف، وهو أن يجازي المسيء على إساءته، والمحسن بإحسانه، هذا ما استقر عليه أمره واعتزمه؛ ولذا قال معتزمًا تنفيذه: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾...، هذا هو جزاء المسيء في قانون العدل الذي سنه ذو القرنين لنفسه، لا يفلت المسيء، وكذلك لا ينقص المحسن من جزاء حسن[(٢)].

إنها سياسة العدل التي تورث التمكين في الحكم والسلطة، وفي قلوب الناس الحب والتكريم للمستقيمين، وإدخال الرعب في قلوب أهل الفساد والظلم، فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم، ويكون بطانته وموضع عطفه وثقته، ورعاية مصالحه، وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض، فسيجد العذاب الرادع من الحاكم في الحياة الدنيا، ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يداه في حياته الأولى.

---

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٦٨.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٨٠.

ولم يعين السياق القوم الذين اتخذ فيهم ذو القرنين هذه السياسة الحكيمة، كما أهمل ذكر المدة التي مكثها بينهم، والنتائج التي توصل إليها، وكأن الأمر المفروغ منه أن تثمر هذه السيرة العادلة، والمبادئ السامية حضارة ربانية، وتقدمًا، وسعادة وطمأنينة؛ لذا لا داعي لذكرها، والوقوف عندها[1].

رابعًا: إنصاف موسى عليه السلام لصاحبه الخضر:

ومن النماذج القرآنية في الإنصاف إنصاف موسى لصاحبه الخضر، حيث قال له عندما اشترط عليه في مصاحبته له: ألا يسأله عن شيء حتى يخبره هو به: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾﴾ [الكهف: ٧٦].

فقوله: ﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي قال منصفًا له: لك الحق بعد ذلك في ترك مصاحبتي، فإن فارقتني لا لوم عليك ألبتة؛ لوضوح العذر منك إلي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أنك قد أعذرت فيما بيني وبينك، وقد أخبرتني: أني لا أستطيع معك صبرًا، وهذا إقرار من موسى بأن الخضر قد قدم إليه ما يوجب العذر عنده، فلا يلزمه ما أنكره[2].

فلما عاد موسى لنفسه وجد أنه خالف وعده مرتين، فاندفع وقطع على نفسه الطريق، وجعلها آخر فرصةٍ أمامه ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي: إن أنكرت عليك بعد هذه المرة، واعترضت على ما يصدر منك فلا تصحبني معك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد أعذرت إلي في ترك مصاحبتي، فأنت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات، وهذا من إنصافه عليه السلام على نفسه، مع أن ذلك حرمه كثيرًا من العجائب التي كان سيراها في رحلته العجيبة تلك مع الخضر.

قال النيسابوري: ونهاه عن المصاحبة حينئذٍ، مع حرصه على التعلم لظهور عذره، كما قال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ وهذا كلام نادم شديد الندامة، جره المقال، واضطره الحال إلى الاعتراف، وسلوك سبيل الإنصاف[3].

وقال ابن عاشور: وأنصف موسى؛ إذ جعل لصاحبه العذر في ترك مصاحبته في الثالثة؛ تجنبًا لإحراجه[4].

خامسًا: الإنصاف في القصاص:

أمر الله تعالى برعاية العدل والإنصاف في استيفاء الحقوق والحدود، وجعل القصاص بالمثل، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ

(١) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ٣٠٥.
(٢) الوسيط، الواحدي ٣/ ١٥٩.
(٣) غرائب القرآن ٤/ ٤٥٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٦.

عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤].

وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦].

قال الرازي: اعلم أنه تعالى أمر برعاية العدل والإنصاف في هذه الآية، ورتب ذلك على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ يعني: إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل، ولا تزيدوا عليه، فإن استيفاء الزيادة ظلم، والظلم ممنوع منه في عدل الله ورحمته.

والمرتبة الثانية: الانتقال من التعريض إلى التصريح، وهو قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

وهذا تصريح بأن الأولى ترك ذلك الانتقام؛ لأن الرحمة أفضل من القسوة، والإنفاع أفضل من الإيلام.

المرتبة الثالثة: وهو ورود الأمر بالجزم بالترك، وهو قوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ [النحل: ١٢٧]؛ لأنه في المرتبة الثانية ذكر أن الترك خير وأولى، وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالأمر بالصبر؛ ولما كان الصبر في هذا المقام شاقًّا شديدًا ذكر بعده ما يفيد سهولته، فقال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧] أي: بتوفيقه ومعونته، وهذا هو السبب الكلي الأصلي المفيد في حصول الصبر، وفي حصول جميع أنواع الطاعات(١).

فالله تعالى أمر المحقين برعاية العدل في العقاب، وترك الزيادة فيه، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم فلكم فى العقاب إحدى طريقين:

- أن تعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة.
- أن تصبروا، وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب، وتصفحوا عنه، وتحتسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم، وتكلوا أمركم إليه، والله يتولى عقوبته.

والصبر خير للصابرين من الانتقام؛ لأن الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه، فإن الزيادة ظلم، والظلم لا يحبه الله، ولا يرضى به، وإن تجاوزتم عن العقوبة، وصفحتم فذلك خير وأبقى، والله هو الذي يتولى عقاب الظالم، ويأخذ بناصر المظلوم.

وهذا كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] أمر الله برعاية العدل والإنصاف في باب استيفاء الحقوق، يعني: إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقتصوا بالمثل، ولا تزيدوا عليه، فإن الزيادة ظلم(٢).

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٨٩.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٠٨.

فوائد الإنصاف على الفرد والمجتمع

للإنصاف والعدل فوائد جليلة، وآثار عظيمة، وثمار كثيرة، سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى المجتمع.

أولًا: ثمار الإنصاف على الفرد:

١. الإنصاف موصل للتقوى:

من ثمار وفوائد الإنصاف والعدل تحقيق التقوى التي هي مطلب كل مسلم، ومرغوب كل مؤمن، والتي أعد الله تعالى لأصحابها جنة عرضها السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿اَعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

والعدل هنا مطلق، يتناول معنى الإنصاف، وعدم الإجحاف، وعدم تجاوز الحق، قولًا وفعلًا، في كل موقف ومناسبة.

قال ابن جرير: وأما قوله: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ فإنه يعني بقوله: ﴿هُوَ﴾ العدل عليهم، أقرب لكم أيها المؤمنون إلى التقوى، يعني: إلى أن تكونوا عند الله باستعمالكم إياه من أهل التقوى، وهم أهل الخوف والحذر من الله أن يخالفوه في شيء من أمره، أو يأتوا شيئًا من معاصيه، وإنما وصف جل ثناؤه العدل بما وصف به من أنه أقرب للتقوى من الجور؛ لأن من كان عادلًا كان لله بعدله مطيعًا، ومن كان لله مطيعًا كان لا شك من أهل التقوى، ومن كان جائرًا كان لله عاصيًا، ومن كان لله عاصيًا كان بعيدًا من تقواه، وإنما كنى بقوله: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ﴾ عن الفعل، والعرب تكني عن الأفعال إذا كنت عنها بـ(هو وبذلك) كما قال جل ثناؤه: ﴿فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢٧١].

﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ [البقرة:٢٣٢][1].

وفي الآية ثلاثة مؤكدات على العدل والإنصاف:

- أنه نهاهم أولًا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل.
- ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل، تأكيدًا وتشديدًا.
- ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾.

وفيه تنبيه على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه[2].

قال البيضاوي: صرح لهم بالأمر بالعدل، وبين أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجور، وبين أنه مقتضى الهوى[3].

والمقصود: أن من ثمار العدل والإنصاف في الفرد أنه يدخله مداخل التقوى، ويقيمه

(١) جامع البيان، ٨/ ٢٢٤.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٣٢.
(٣) أنوار التنزيل، ٢/ ١١٧.

مقام المتقين.

قال السعدي: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]أي: كلما حرصتم على العدل، واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى[(١)].

٢. الإنصاف سبب في محبة الله للعبد:

ومن ثمار الإنصاف والعدل نيل محبة الله تعالى، التي هي أعظم العطايا، وأحب المطالب للمسلم، قال تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩] والقسط من معاني الإنصاف.

قال الرازي: والقسط العدل والنصفة[(٢)].

والمعنى: أي: واعدلوا، إن الله يحب العادلين، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء[(٣)].

وفي الآية إظهار المحبة للمقسطين على شرف منزلتهم، وفضيلة أفعالهم.

وأي منزلة أعلى في الوجود من هذه المحبة التي تتضمن الرضا، ورضوان الله أكبر من كل شيء.

قال السعدي: فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبدًا يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد[(٤)].

وقال ابن عطية: ومحبة الله للعبد أمارتها للمتأمل أن يرى العبد مهديًا مسددًا، ذا قبول في الأرض، فلطف الله بالعبد ورحمته إياه هي ثمرة محبته، وبهذا النظر يتفسر لفظ المحبة حيث وقعت من كتاب الله عز وجل[(٥)].

فالعبد إذا بلغ في الطاعة إلى حيث يفعل كل ما أمره الله، وكل ما فيه رضاه، وترك كل ما نهى الله، وزجر عنه، فكيف يبعد أن يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة ما يريده العبد، بل هو أولى؛ لأن العبد مع لؤمه وعجزه لما فعل كل ما يريده الله، ويأمره به فلأن يفعل الرب الرحيم مرة واحدة ما أراده العبد كان أولى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠][(٦)].

وفي الآية إثبات صفة المحبة لله عز وجل على الحقيقة، كما يليق بجلاله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾

قال ابن العثيمين: وهي محبة حقيقية على ظاهرها؛ وليس المراد بها الثواب؛ ولا إرادة الثواب خلافًا للأشاعرة، وغيرهم من أهل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٢٤.
(٢) مفاتيح الغيب، ٩/ ٤٨٥.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٧٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٣٥.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٢٢.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٣٥.

التحريف الذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنًى لا يكون بمثابته؛ فإن مجرد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبة؛ وشبهتهم أن المحبة إنما تكون بين شيئين متناسبين؛ وهذا التعليل باطل، ومخالف للنص، ولإجماع السلف، ومنقوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبة قد تكون بين شيئين غير متناسبين؛ فقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم أن أحدًا -وهو حصى- (جبل يحبنا ونحبه)[(١)].

والإنسان يجد أن دابته تحبه وهو يحبها؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حنت إليه، وأتت إليه؛ وكذلك غيره من المواشي؛ والإنسان يجد أنه يحب نوعًا من ماله أكثر من النوع الآخر[(٢)].

والمقصود: أن من ثمار الإنصاف حصول المنصف على محبة الله تعالى، ويا لها من نعمة عظيمة! وثمرة جليلة، وهي صفة لله تعالى، تستلزم الرضا والرحمة والإكرام والثناء وغيرها من العطايا، ولا يجوز تعطيل صفة المحبة، وصرفها عن ظاهرها إلى الثواب، فيقال مثلًا: «يحببكم الله: بمعنى يثبكم الله» بل الصواب أن يقال: إن الله يحبكم، وإذا أحبكم يثبكم؛ لأن المثوبة من آثار المحبة لا عين المحبة.

٣. الإنصاف أمان للفرد من الضلال:

ومن ثمار الإنصاف والعدل الأمن من الوقوع في الضلال، واتباع الهوى، والميل عن الحق.

وقد قال تعالى لنبيه داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص:٢٦].

قال أبو جعفر: قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: بالعدل والإنصاف ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ يقول: ولا تؤثر هواك في قضائك بينهم على الحق والعدل فيه، فتجور عن الحق ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول: فيميل بك اتباعك هواك في قضائك على العدل، والعمل بالحق عن طريق الله الذي جعله لأهل الإيمان فيه، فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل الله[(٣)].

قال الواحدي: قوله: ﴿بِمَا نَسُوا۟﴾ أي: تركوا القضاء بالعدل[(٤)].

﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى، فيكون سببًا لضلالك ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دلائله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه، ٥/ ١٠٣، رقم ٤٠٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، ٢/ ١٠١١، رقم ١٣٩٢.
(٢) تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة ٢/ ٣٩١.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٨٩.
(٤) الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٥٠.

التي نصبها في العقول، وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها[1].

وقال الرازي: وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب.

أما المقام الأول: وهو أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، فتقريره: أن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التي هي الباقيات الصالحات؛ لأنهما حالتان متضادتان، فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر.

أما المقام الثاني: وهو أن الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب، فالأمر فيه ظاهر؛ لأن الإنسان إذا عظم إلفه بهذه الجسمانيات، ونسي بالكلية أحواله الروحانيات، فإذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق، ودخل ديارًا ليس له بأهل تلك الديار إلف، وليس لعينه قوة مطالعة أنوار تلك الديار، فكأنه فارق المحبوب، ووصل إلى المكروه، فكان لا محالة في أعظم العناء والبلاء، فثبت أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، وثبت أن الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب، وهذا بيان في غاية الكمال[2].

٤ . الإنصاف سبب في صلاح العمل ومغفرة الذنوب:

ومن ثمار تحري الإنصاف والعدل في جميع الأقوال والأعمال، صلاح الأعمال وغفران الذنوب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

والقول السديد: هو القول العدل.

قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ فيه أربعة قوال:

أحدها: صوابًا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: صادقًا، قاله الحسن.

والثالث: عدلًا، قاله السدي.

والرابع: قصدًا، قاله ابن قتيبة.

ثم في المراد بهذا (القول) ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه (لا إله إلا الله) قاله ابن عباس وعكرمة.

والثاني: أنه العدل في جميع الأقوال والأعمال، قاله قتادة»[3].

وهذه الأقوال كلها صحيحة، فالقول السديد هو القول الصواب، المستقيم، العدل، الصادق، القاصد، المنصف.

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٨٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٣٨٦.

(٣) زاد المسير ٣/ ٤٨٧.

والمعنى: قولوا قولًا قاصدًا غير جائز، حقًا غير باطل(١).

قال ابن حجر: «والسداد: بفتح أوله، العدل، المعتدل، الكافي، وبالكسر ما يسد الخلل»(٢).

وقوله: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يقول تعالى ذكره للمؤمنين: اتقوا الله، وقولوا السداد من القول، يوفقكم لصالح الأعمال، فيصلح أعمالكم ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ أي: ويعف لكم عن ذنوبكم، فلا يعاقبكم عليها(٣).

فيكون في قوله: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ وجهان:

أحدهما: يصلحها بالقبول.

الثاني: بالتوفيق(٤).

والمقصود: أن في قوله: ﴿قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ أي: عدلًا مستقيمًا، قاصدًا إلى الحق، والمآل واحد، يعني: صدقًا غير كذب، ولا مجازفة فيه، ولا ظلم ولا حيف، فإن الكذب يمحق، والصدق يبقى، فمن يلتزم السداد والإنصاف في أقواله كلها، فإنه يوفق لصلاح العمل، ومغفرة الذنوب، كما في هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

ثانيًا: ثمار الإنصاف على المجتمع:

كما أن للإنصاف ثمارًا وفوائد تعود في الفرد، فكذلك له ثمار في المجتمع، ومنها:

الأمن من العذاب والهلاك:

إن مجتمعًا يسوده الإنصاف، فينصف الناس بعضهم بعضًا، ينصف الرجل المرأة، والمرأة الرجل، وينصف الحاكم الرعية، والرعية تنصف الراعي، وهكذا، ويسود العدل والإنصاف بين أفراده جميعًا، فإنهم عند ذلك يأمنون من غضب الله وعقابه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ١١٧﴾ [هود:١١٧].

قوله: ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ أي: فيما بينهم لا يتظالمون، ولكنهم يتعاطون الحق بينهم، وإن كانوا مشركين، إنما يهلكهم إذا تظالموا(٥).

فالله لم يكن ليهلكهم وهم يتعاطون الحق فيما بينهم، وإن كانوا مجرمين(٦).

فيكون معنى الآية على هذا: إنه لم يكن من شأن ربك أيها الرسول المصلح، ولا من سنته في خلقه أن يهلك العواصم والمدائن بظلم منه، أو بشرك من أهلها، والحال أنهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٣٥.
(٢) فتح الباري ١١/ ٣٠٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٣٦.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٢٨.

(٥) جامع البيان، ١٥/ ٥٣٠.
(٦) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٧٥.

مصلحون في أحكامهم وأعمالهم...، وهؤلاء البقية لا تخلو منهم أمة، فهم حجة الله على الأقوام، ومتى قلوا في أمة غلب عليها الفساد، وقرب انتقام الله منها[(١)].

والحاصل: أن للمفسرين في معنى الآية قولان:

أحدهما: أن الله تعالى لا يهلك القرى إلا إذا شذت عن الصلاح، فكفرت بالله، وكذبت الرسل، واقترفت المنكرات.

وثانيهما: أن الله لا يهلك القرى إذا كان أهلها مصلحين، يتعاطون الحق بينهم، ولا يتظالمون، وإن كانوا غير مؤمنين بالله ورسله، وإنما يهلكهم إذا تظالموا، وهذا القول هو المشهور، كما قال السمعاني كما سبق، والأثر السابق يؤيده، لكنه لم يرد في كتب السنة المعتمدة.

وهذا القول أيضًا هو الأوجه، كما هو المتبادر، ومضمون هذه الآية والآية التي قبلها يدعمه دعمًا قويًا، حيث اقتصر الكلام فيهما على الفساد في الأرض، والإجرام، والظلم، واتباع الشهوات، وأسباب الترف، وجملة: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود:١٠٢] من السورة نفسها تدعم ذلك أيضًا.

وللسيد رشيد رضا قول سديد في ذلك، حيث يحمل الجملة على معنى الصلاح الاجتماعي والعلمي والعمراني، أو يجعل ذلك من ضمن ما يحمله معنى الجملة، ويعلل بذلك عدم تذكير الله تعالى الأمم الصالحة على هذا الوجه، مع كفرها وشركها، ويقول: إن الأمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم، وشيء من مثل هذا ملموح في كلام بعض المفسرين القدماء، كالطبري وابن كثير والزمخشري[(٢)].

وقال أبو زهرة في معنى الآية: وأهلها مصلحون فيما بينهم، يتعاونون، ويقيم الحق في معاملاتهم، حتى لقد قال بعضهم: إن الشرك مع إقامة العدل لا يهلك، والإيمان مع ظلم التعامل يهلك الأمم.

وقال بعض المفسرين: إن المراد -والظاهر أنه مراد- أنه ما كان ربك ليهلك القرى ظالمًا لها، وأهلها مصلحون، يعدلون فيما بينهم، ولا يشركون بالله، ولا يكون منهم ظلم، بل نصفة وعدل، فما كان الله ظالمًا لعباده[(٣)].

موضوعات ذات صلة:
الظلم، العدل

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٢٠.

(٢) انظر: التفسير الحديث، دروزة محمد عزت ٣/ ٥٥٣.

(٣) زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٧٣.